روايات مصرية للجيب

عالم آخر

1









د. تامر إبراهيم

عالم آخر

مشاهد مخيفة

من عالم

الرعب والفزع

حكايات ليلية

لا أعرف كيف أصف المشهد، لكنى سأحاول تقريب الصورة لذهنك.. تخيل جثة رجل تسير تجاهك بحركة ميكانيكية بطيئة مخيفة.. تخيل أن هناك شيئًا ما يتحرك أسفل جلد هذه الجثة كأنه سائل يغلى.. تخيل أن الرأس يسقط على الصدر بزاوية ذات دلالة..

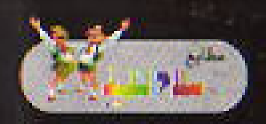
تخيل أن هذه الجثة كانت صديقك منذ دقائق معدودة وكان يتناوب معك على لفافة التبغ الأخيرة..

تخيل أن الصوت الرهيب الماجن، كان يصدر من أعماق جثة (كارل) ليقول:

- هاأنذا قادم إليكما.. انتظرانى..

هى هى هى..

الرواية القادمة: الذى لم يمت





عالم آخر

اليوم سنحكى حكايات ..

وحكايتنا ليست كأى حكايات ، بل هى حكايات مخيفة ..

اليوم سندخل عالم الرعب من أوسع أبوابه وسنطوف بين القلاع والقبور .. سنغوص فى قلب المحيط وسنستكشف أراضى لم تطأها قدم .. بشرى !

سنعرف أسراراً ما كان لنا أن نعرفها .. وربما ندفع الثمن ..

اليوم سنبدأ أولى خطواتنا فى هذا العالم ..

لكننى لا أعد أحد بالعودة ..

أبداً ..

د . تامر إبراهيم

الذى حدث هناك

ـ « هل لى أن أفهم ما الذى يحدث بالضبط ؟! »

قالها ، ثم دارت عيناه فى الوجوه المحيطة ، علّه يستشف إجابة منها دون جدوى ..

واقترب منه هذا القصير ، قائلاً بلهجة محايدة :

ـ عذرًا لاستدعائك العاجل يا سيدى .. ولكن ثمة ما أودّ عرضه عليك ..

زاده قوله هذا توترًا فعاد يتساءل :

ـ ماذا بالضبط ؟

ـ لست أظن الموقف قابلاً للشرح .. من الأفضل أن تراه بنفسك ..

واجتاز بضعة ممرات ، منحتها إضاءة النيون الشاحبة ، جوًا ثقيلا ، شعر به يجثم على نفسه ، ويخنق أفكاره المخدرة بآثار النوم الذى انتزعوه منه بذلك الاستدعاء العجيب ..

ـ « نرجو حضور سيادتك على الفور .. الأمر عاجل وغير قابل للتأجيل .. »

ترى ما هو هذا الأمر العاجل الذى استدعوه من أجله ؟

وألقى بنظرة أخرى ، على ملامح القصير الذى سار جواره صامتًا ، فى محاولة أخرى لاستشفاف طبيعة الموقف ، لكن وَأدَها جمود ملامح القصير المستفز ..

وأخيرًا بلغا قاعة عرض الفيديو ، وما إن دلفاها حتى أغلق القصير البابَ خلفه بإحكام ، ثم التفت إليه ليحدق فى عينيه بضراوة قائلا :

ـ لقد منحت الأمر سرية مطلقة حتى تطَّلع عليه بنفسك .. إنه يتعلق بالمركبة الفضائية (إس ـ ٣٢) التى أطلقناها الأسبوع الماضى فى مهمتها الاستكشافية ..

اصطبغ صوت المسئول بالتوجس وهو يقول :

ـ ما الذى حدث لها ؟

منحه مساعده القصير نظرة صامتة أذابت أعصابه ، ثم واصل وكأنه لم يسمع سؤاله :

ـ التسجيلات التى ستشهدها الآن من داخل المركبة (إس ـ ٣٢) ، ولقد أخذنا فى تلقيها بعد ثلاثة أيام من إطلاق المركبة ..

وبدون أن ينتظر رده قام بتشغيل جهاز العرض ..

وعلى الشاشة المسطحة .. وأمام عينى المسئول .. أطلَّ وجه شاب واضح القسمات ، قصير الشعر ، خرج صوته قوى النبرات على نحو يوحى بالثقة وهو يقول :

ـ هنا المركبة (إس ـ ٣٢) .. البث الأول .. الوضع مستقر وجميع الأجهزة تعمل بكفاءة .. السرعة تبلغ ثلثى سرعة الضوء وفى المسار الصحيح .. أجهزة الضغط وتوليد الأكسجين تعمل بكفاءة .. سأقوم بإرسال البث الدورى الثانى بعد أربع وعشرين ساعة بالتوقيت الأرضى ..

قالها ، وبدا كمن يمنح الكاميرا ابتسامة بلا معنى ، ثم أظلمت الشاشة ، وهمَّ المسئول بقول شىء ما عندما سطع ضوء الشاشة مرة أخرى فى عينيه ، حاملاً وجه الشاب بملامحه الثابتة ، والذى انبعث صوته مرة أخرى يقول :

ـ هنا المركبة (إس ـ ٣٢) .. البث الثانى .. مازال الوضع ثابتًا .. الفحص الدورى للأجهزة يؤكد أن كل شىء على مايرام .. فقط يبدو أن هناك خللاً ما فى أجهزة ضخ الأكسجين ، فهى تضخ الأكسجين بمعدل أقل من المعتاد .. لست متأكدًا .. سأقوم بمراجعة جهاز الضغط والتأكد من هذا .. ما زلت أنطلق بسرعة ثابتة وفقًا للقصور الذاتى .. البث القادم سيكون بعد أربع وعشرين ساعة بالتوقيت الأرضى ..

ومرة أخرى الابتسامة غير ذات المعنى ، ثم أظلمت الشاشة ، وإذ سطعت الشاشة مرة أخرى ، كانت تحمل تفاصيل أكثر وضوحًا لأجهزة المركبة الداخلية ، وللشاب الذى وقف وسطها ليقول وقد نحت القلق تفاصيل جديدة فى قسماته الواضحة :

ـ المركبة (إس ـ ٣٢) .. البث الثالث .. يبدو أن هناك خطأ ما .. لقد تأكدت من جميع أجهزة ضخ الأكسجين وجهاز إعادة تحويل ثانى أكسيد الكربون إلى أكسجين وكلها تعمل بكفاءة ، لكننى مازلت أشعر أن الأكسجين أقل .. بالطبع سنستبعد احتمال التسرب ، وهذا يترك لى احتمالاً .. حسن .. إنه ليس احتمالاً ..

وصمت الشاب لحظة بدا فيها حائراً فيما يقول ، ثم اقترب بوجهه ليملأ به الشاشة أمام عينى المسئول مردفًا :

ـ الأمر يبدو كأن هناك من يتنفس معى داخل المركبة ! لست أدرى .. على كل حال البث القادم سيأتى فى موعده المعتاد ..

وهذه المرة اجتهد لينتزع ابتسامته المعتادة ثم أظلمت الشاشة مجددًا ..

وعلى الفور قال المسئول ، والخدر يغلف أعصابه أكثر وأكثر :

ـ ما الذى يعنيه بوجود من يتنفس معه داخل المركبة ؟ أليس وحيدًا داخل المركبة ؟

ـ تابع يا سيدى .. تابع ..

وسطعت الشاشة مرة أخرى ، وانفجر معها صوت الشاب مخترقًا أعصاب المسئول ، وهو يهتف والانفعال يصنع تموجات عنيفة فى ملامحه :

ـ هنا المركبة (إس ـ ٣٢) .. أعرف أن ما سأقوله سيبدو جنونًا وغير منطقى ، لكننى لست وحيدًا فى هذه المركبة !! نعم ، لست وحيدًا ، هناك من يتنفس داخل المركبة .. يتنفس وأنا أسمعه بوضوح .. أسمع صوت تنفسه الثقيل طيلة الوقت .. إنه يستهلك الأكسجين بضراوة دون أن يخرج ثانى أكسيد الكربون ليتم إعادة ضخه فى صورة أكسجين .. أشعر أننى أتنفس بصعوبة .. ربما أنا أهذى .. ربما هى الرحلة التى أثرت علىّ .. حقًا أتمنى لو أننى أهذى ..

وهذه المرة لم يلق بابتسامته قبل أن تظلم الشاشة ..

وهذه المرة تملكت ارتعادة عجيبة جسد المسئول ، واتسعت عيناه فى مزيج من اللهفة والقلق منتظرًا سطوع الشاشة مرة أخرى ..

وفى أعماقه بدأ شعور دفين بالخوف يشق طريقه الى سطح أفكاره ..

أفكاره التى استحال الخدر حولها إلى طبقة كثيفة من الضباب و ...

وسطعت الشاشة مجددًا ..

وبلغ الخوف طريقه بسرعة جنونية من قبره ، إلى سطح أفكار المسئول ، الذى حدق بعينين زائغتين فى الشاب الذى جلس على أرض المركبة ضامًا ركبتيه إلى صدره وكأنما يلوذ بهما من خطر مجهول ..

وتحدث الشاب .. بشحوب وجهه تحدث .. بالارتعادة فى صوته تحدث :

ـ إنه .. هنا .. هنا معى فى المركبة .. صدقوا هذا أو لا تصدقوه هذا ، فلم أعد أبالى .. لقد فقدت تحكمى فى المركبة .. لقد تغير مسارها وهى تتجه الآن إلى المجهول ذاته .. لست أدرى كم تبقى لى من أكسجين .. ولم يعد هذا يصنع فارقًا على أية حال .. فقط أتمنى أن ينتهى كل هذا سريعًا .. ترى ، هل من الممكن أن يحدث هذا ؟

وأظلمت الشاشة ..

هيستريا ..

هذا الوغد الذى يلعب بأعصابه الآن من على بُعد آلاف الأميال ، مصاب بالهستريا ..

لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ..

أم .. أم أن الأمر كذلك حقًا ؟؟

واقتحم صوت مساعده القصير ، الحيادى النبرة ، أفكاره يقول :

ـ انقطع الاتصال بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام .. ثم .. ثم جاءنا هذا البث ..

ومع سطوع الشاشة هذه المرة ، ظهر الهول ..

وانتفض جسد المسئول والخدر يتلاشى فجأة تاركًا كل أفكاره تحت رحمة الخوف ..

الشاب .. هل .. هل كان يصرخ ؟!

أما المركبة نفسها فكانت تهتز لأغرب سبب ممكن .. وربما أكثر إفزاعًا ..

لقد كانت هناك طرقات عنيفة على جدران المركبة الخارجية ..

تمامًا وكأنما اجتمع مجموعة صبية مشاكسين على سيارة صغيرة ليوسعوها طرقًا ، مع فارق .. أنها ليست سيارة ، وأنهم ليسوا صبية .. فهم على الأقل ـ فى الفضاء الخارجى الآن ..

وأظلمت الشاشة بغتة فشعر المسئول وكأنما فقد القدرة على التنفس .. وانتزع كلمة واحدة من حلقه وكأنما ينتزع رأس حربة غرس فيه :

ـ رباااااه ..

وبدا صوت مساعده الحيادى كأنما يأتى من بعيد ، إذ قال :

ـ الآن سنشاهد آخر بث وصلنا من المركبة .. تماسك ..

وسطعت الشاشة مجددًا ، ليبدو رذاذ دم على سطح الكاميرا ، حدق فيه المسئول بفزع تضاعف مع ظهور وجه الشاب هذه المرة ..

ظهر وجهه ببطء .. من أسفل لأعلى ليملأ الشاشة .. عينان جاحظتان يرقص الرعب فى حدقتيهما ، جاحظتان بصورة غير طبيعية .. وخيوط الدم تسيل من فتحتى الأنف والأذنين ..

وخرج صوته هذه المرة .. فى حياته لن ينسى المسئول هذا الصوت :

ـ الـ .. ضغـ .. طـ .. إ .. نه .. يتلاشـ .. هو .. فعلـ .. ها !!

وانفجر الدم بغتة ليغطى الشاشة كلها وليرتد معها جسد المسئول إلى الخلف ، وكأنما انفجر الدم فى وجهه هو ..

وعندما نطق أخيرًا كان ما فعله أشبه بالصراخ :

ـ لقد مات .. هذا الشاب .. كيف؟! كيف حدث هذا؟! ومن الذى قام باختبار أجهزة المركبة قبل أن تنطلق ؟! وما الذى حدث هناك ؟!

أدار له مساعده القصير وجهًا صبغه الضوء القادم من الشاشة باللون الأحمر ليقول :

ـ سيدى .. أخشى أن هذه المشكلة ليست الأساسية ..

صرخ المسئول بغضب ارتجفت له حروفه :

ـ ما هى المشكلة إذن ؟!

اختفت النبرة الحيادية من صوت مساعده ، وهو يقول أخيرًا :

ـ المشكلة أن المركبة (إس ـ ٣٢) أرسلت لمهمة استكشافية بحتة .. وقيادتها تتم بوساطة الكمبيوتر ، بصورة أوضح نحن لم نرسل أحدًا داخل هذه المركبة ، نحن لا نعرف من هذا الشاب وكيف بلغ المركبة .. لقد أرسلناها خاوية .. خاوية تمامًا !

قالها فتجمد المسئول وقد فقد قدرته على النطق .. وفى عقله أخذ شيطان الهلع يمزق أفكاره وقدرته على التماسك ..

حرك رأسه أخيرًا ليلقى بنظرة على الشاشة ، وقد بدأ يفهم ..

وعلى الشاشة .. بدا وكأن وجه الشاب الذى غطته الدماء ، يبتسم ابتسامة بلا معنى ..

* * *

إنهم هنا

بغتة .. انتفض مستيقظًا ليحدق حوله ذاهلاً ..

قمرة القيادة .. السفينة .. المحيط .. زجاجات الخمر .. الرحلة البحرية .. الطاقم ...

أفكار أخذت تبعث من ذاكرته مفعمة بعبق الخمر ، التى تناثرت زجاجاتها حوله ، فحدق فيها لحظة مستعيدًا ذاكرته ثم ...

الطاقم .. أين الطاقم ؟ لماذا لا تتحرك السفينة ؟

عادت ذاكرته له فى لحظة ، فهبّ واقفًا ليندفع خارج قمرة القيادة ، صارخًا :

ـ هؤلاء الأوغاد لن يذوقوا طعم الطعام لأسبوع و ...

وبتر عبارته ، ليحدق فى سطح السفينة الخالى تمامًا قبل أن يقول :

ـ أين ذهب الجميع ؟

أجابته الرياح التى هبت فى وجهه ، محملة برائحة البحر ، لتنفض عنه دهشته ، ولتعيد إليه ثورته ، فانفجر بها صارخًا :

ـ أين أنتم أيها الأوغاد الحمقى ؟

وبخطوات واسعة اتجه إلى السلم ، الذى يقود إلى الأسفل ، حيث عنابر النوم ، وقد عبثت شياطين الغضب بملامحه ، وفى نبرة صوته التى خرجت هادرة :

ـ تنامون حتى الآن يا أبناء الملاعين !

وضرب باب العنبر ، بركلة عنيفة فتحته على مصراعيه و ... و ...

واخترقت الرائحة الشنيعة أنفه لتجعله يبتلعها مع باقى جملته ، فأغمض عينيه متراجعا ثم فتحهما ، و ...

ـ هل أهذى ؟

لكن الرائحة المخيفة التى تصاعدت من جثث طاقمه ، الذين تناثروا عبر العنبر أخبرته أنه لا يهذى ...

بل جنّ !

إن ما يراه الآن هوالجنون بعينه ..

ولدقيقة كاملة تصنم فيها جسده ، وتحجرت عيناه على المشهد ، أخذت صور عديدة تخترق مخيلته كضربات سكين ..

محيط .. رحلة .. خمر .. سطح خال .. رائحة .. جثث .. جثث كثيرة ...

طاقمه كاملاً ...

ورغمًا عنه أخذ يتراجع الى الوراء بخطوات خائفة .. ثم أخذ يضحك ..

يضحك .. يضحك .. يضحك ..

عاد إلى قمرته وضحكاته الجوفاء تحملها الرياح إلى حيث لن تعود ..

يضحك ثم يمسك بالزجاجة مرة أخرى ..

ثم ...

* * *

عندما استيقظ هذه المرة ، كانت زجاجة الخمر شبه الخاوية لا تزال عالقة بيده ...

وللمرة الثانية أخذ يحدق فيما حوله ذاهلا ، قبل أن يجرع ما تبقى فى الزجاجة مرة واحدة لتعود إليه ذاكرته كاملة ..

إنه الآن فى سفينة فى قلب المحيط ، وحيدًا بعد أن ذهب طاقمه كله إلى الجحيم ...

مرحى .. على الأقل لن يقلق بشأن الطعام .. إلا لو كان هؤلاء الأوغاد قد ملئوا به أجوافهم قبل أن يموتوا تلك الميتة الجماعية المبهرة ..

لا بأس .. لا بأس .. على الأقل إنه يظفر الآن بالهدوووووء ..

« أين القبطان ؟ »

دوى الصوت من خارج قمرة القيادة ، لتتحطم زجاجة الخمر ، التى سقطت من يده ، ولتحطم فكرته عن الهدوء وعن ...

« لقد اختفى القبطان .. تخلى عنا ذلك الوغد ثانية .. »

وعن الموت ..

إنه .. طاقمه .. الذى .. مات !!

ومأخوذًا قام من مكانه ، ليخرج من قمرته ، متجهًا إلى عنبر النوم الذى استحال إلى مقبرة جماعية ، ليشاهد الهول بعينيه ..

فأمامه كانت الجثث المشوهة فى أماكنها ، وقد وقف إلى جوار كل جثة شبحها ...

طاقم كامل من الأشباح !

وانتزع الكلمات من حلقة ، ليقول :

ـ لقد جننت .. نعم .. جننت ..

لكن الجنون كان أبعد من أن يناله ، فالأشباح التى بدت وكأنها لم تره واصلت :

ـ ما الذى سنفعله إذن ؟

- سنواصل بدونه .. لا حاجة لنا به ..

- عظيم .. س .. سنذهب لـ ... لنواصل بمفر .. ردنا ..

خرج صوته هذه المرة مبحوحًا لفرط انفعاله :

- أنا هنا ..

لكن أحدًا من الأشباح لم يعره انتباها .. بل خرجوا من العنبر ، ليصعدوا مارين على قيد سنتيمترات منه دون أن يعيروه أدنى اهتمام ..

فقط تركوه وحيدًا مع جثثهم ، التى لم تقل رائحتها شناعة عن ذى قبل ...

مهلا .. لماذا لا يكون هوالشبح ؟

وماذا عن السفينة التى لا تتحرك ؟؟

وماذا عن تلك .. تلك الرائحة الشنيعة التى تكاد تنتزع روحه بحق ؟!

« هيه وصلنا يا رجال .. »

« مرحى .. لنهبط إذن .. »

أتاه صوت الأشباح ليجمد الدم فى عروقه ..

ولنـ .. لنهبط ! عن ماذا يتحدث هؤلاء الحمقى ؟!

واندفع ليصعد إليهم ، ليجدهم يهبطون ثانية دون أن يعيروه انتباهًا ـ كالعادة ـ وقد حمل كل منهم معولاً ، لايعلم إلا الله من أين أتوا به ، وأحدهم يقول :

- هيا .. سنهبط الآن ..

ورفع معوله بحنكة ، ليهوى به على قاع السفينة لتنفجر مياه المحيط الى الداخل ..

وبرعب صرخ هو :

- ما الذى تفعلونه أيها التعساء ؟

لكن المعول الثانى هوى لتتدفع المياه أكثر وأكثر ...

ثم هوى المعول الثالث والرابع ، وتصاعدت مياه المحيط لتغمر القاع ، ولتصل فى سرعة إلى ساقيه ...

صرخ مجددًا حتى نفرت عروقه :

- توقفوا أيها الملاعين .. ستغرقون السفينة ..

التفت أقرب الأشباح إليه بغتة ، ليقول بصوت لا يمت لعالم البشر بصلة :

- أعرف .. ستغرق معنا ..

تسمر فى مكانه لحظة ، شعر فيها ببرودة مخيفة تثلج روحه ، وبرغبة قاهرة للتقيؤ .. ثم اتخذ قراره فجأة ..

اندفع يعدو إلى السطح مرددًا من بين لهثاته :

ـ يجب أن أخرج من هنا .. يجب أن أخرج من هنا ..

لكنه توقف أمام مشهد النيران ، التى غطت سطح السفينة ، عاجزا عن التفكير ..

إنها لحظة الحقيقة كما يقول الإنجليز ..

لقد أجاد الأشباح اللعبة حقًا ..

لكن فكرة الغرق مع السفينة ، ومع طاقم من الأشباح ، دفعته لالقاء نفسه وسط النيران ، ليعدو صارخاً ...

ـ هذا جنون .. جنون .. جنووووون ...

وألقى بنفسه من السفينة ، ليغوص فى قلب المحيط ..

* * *

« مرت عشر سنوات على ما حدث .. »

قالها بصوت مزقت نبراته الشيخوخة ، للطفل الجالس أمامه ، فى ذلك الكوخ الخشبى ، قابضًا بيده على كوب من شراب ساخن ، رشف من رشفة ، ثم قال :

ـ لست أدرى كيف نجوت بعد هذا .. كل ما أذكره أننى كنت أحارب ، للبقاء على سطح الماء ، أشاهد بعينى سفينتى تحترق ، وتغرق ، ثم انتشلتنى سفينة أخرى بعد ذلك ، حيث بدأت أستوعب ما حدث ...

سأله الطفل بلهفة ، وعيناه تلمعان ..

ـ جدى .. قلت لى إنهم قالوا إنك تخليت عنهم ثانية .. كيف ؟!

تدفقت المرارة فى صوته ، وهو يجيب :

ـ كنت مدمنًا للخمر حينها ، لذا لم أذكر ما حدث قبل موتهم .. إنه الطاعون .. لقد أصيبوا بالطاعون قبل موتهم ، فتخليت عنهم وأغلقت على نفسى قمرة القيادة ومعى الأمصال الواقية .. كنت أخشى العدوى ، والخمر كانت قد ذهبت بعقلى .. وإذ عادت أشباحهم ، كانت تبغى الانتقام ، بتلك المسرحية التى مثلوها ..

لحظة صمت ثم أردف :

ـ صحيح إننى نجوت من انتقامهم يومها .. إلا أنهم تركوا لى عقابًا قاسيًا ...

ورفع عينيه لينظر إلى طاقم الأشباح ، الذى وقف خلف الطفل رامقين إياه بقسوة ، ليقول :

ـ إننى أراهم طيلة الوقت وحدى .. إنهم هنا ..

* * *

فى الغرفة المغلقة

جذب عدة أنفاس من غليونه ، قبل أن ينثر الدخان فى سماء الغرفة ..

ثم التفت إلى الطبيب الشاب الذى يرمقه طيلة الوقت بانبهار ، ليقول بلهجة عملية بحتة :

- هل أنت مستعد ؟

- نعم يا سيدى ..

- إذن هيا بنا ..

وانطلق يتبعه ذلك الطبيب المنبهر ، إلى أكثر الأماكن رهبة فى هذه المستشفى ..

المشرحة ، حيث قضى أكثر من نصف عمره ..

ربما عمره كله ، لم يعد يدرى .. حياته كلها دائرة من النوم .. الاستيقاظ .. الطعام .. المشرحة .. المائدة الرخامية الباردة ، تحمل له جسدًا ساكنًا ووجهًا يحمل عظة الموت وقسوته ..

ربما كان هذا الطبيب الشاب ، أول من يصحبه فى عالمه البارد الخاوى .. إنه يريد أن يتعلم ، فليمنحه ما يريده إذن ..

وما إن جمعتهما الغرفة الباردة ، حتى التفت إلى الطبيب الشاب ليقول :

- أهى أول مرة لك ؟!

- نعم .. نعم يا سيدى ..

مرحى .. ها هو قد بدأ يتوتر ، دون أن يرى الجثة حتى .. من الأفضل له ألا يفقد وعيه وإلا .. وإلا سيضيع هذا وقته بلا طائل ..

أمسك الملف على المنضدة ، ليقرأه بعينيه لحظة ، ثم قال :

- حسن .. لدينا قتيلة فى غرفة مغلقة من الداخل .. ما هى الاحتمالات التى نملكها إذن ؟

انطلق الطبيب الشاب يجيب ، كأى طالب نجيب :

- تسمم أو اختناق أوانتحار ..

- عظيم .. دعنا نستبعد التسمم والاختناق ، فهى لا تحمل أعراض كليهما .. ما المتبقى إذن ؟

- الانتحار ..

ابتسم ابتسامة جانبية ، وهو يتجه إلى المنضدة الرخامية ، ودفع الغطاء الملوث ببقع حمراء طازّجة ، قائلاً :

ـ إذن فهذه هى أول حالة انتحار بفصل الرأس عن الجسد ..

وعلى عكس ما توقع تماماً ، اقترب الطبيب الشاب من المنضدة متفحصاً الجثة مقطوعة الرأس ، باهتمام فضولى ، ثم بدأ يقول بصوت خلا تماماً من التوتر :

ـ أنثى بيضاء فى العقد الثانى من عمرها .. الرأس مفصول عن الجسد بأداة حادة .. شديدة الحدة فى الواقع ، فلم أر فى حياتى قطع له هذه الحواف .. ربما كانت الأداة المستخدمة سيفاً ، أو فأساً ..

ـ عظيم .. ليست ضحية انتحار إذن ؟!

ـ لا أستطيع الجزم بهذا الآن ..

أصابته إجابة الطبيب الشاب بالضيق ، فقرر أن ينهى هذا الجدل ، قائلاً :

ـ دعنى أمنحك الصورة كاملة إذن .. لقد كانت هذه الفتاة فى غرفة مغلقة ، حين لاحظت أختها الدماء المنهمرة من أسفل باب الغرفة .. طرقت الباب كثيراً قبل أن تبدأ فى الصراخ .. وحين اقتحم الجيران الغرفة ، واستدعوا الشرطة بعد ذلك ، كانت المجزرة التى رأوها ، تحمل لهم ألف سؤال ..

وصمت لحظة ليعيد إشعال غليونه ، ولينثر المزيد من الدخان ، قبل أن يتابع :

ـ لقد كان كل شىء محطماً فى الغرفة .. بل منسوفاً وكأنما انفجرت قنبلة فى المكان .. أما هى ، فكانت تسبح فى بركة هائلة من الدماء ، وقد ألقى أحدهم رأسها فى ركن الغرفة .. النافذة الوحيدة فى الغرفة كانت مغلقة من الداخل ، وكذلك باب الغرفة .. ولم يكن لسيفك الحاد هذا أى وجود ..

ظل الطبيب الشاب جامداً برهة يفكر ، قبل أن يقول أخيراً :

ـ كيف خرج القاتل إذن ؟

منحه هو مزيداً من دخان غليونه ، دون أن يجيب ، فكرر الطبيب الشاب :

ـ هل تعرف كيف ؟

ها هو يقوده إلى الفخ ، بعد أن فتح هو بابه بنفسه .. فليدخل إذن أو ...

ـ لنبدأ بفحص الجثة أولاً .. هذا هو عملنا ..

ـ أعرف أنه عملنا .. لكن لماذا لا نضفى عليه القليل من المتعة ؟

لا مناص من الفخ إذن .. ليلقى له بالكرة إذن ..

ـ ما الذى تعتقده بالضبط ؟

ـ أن القاتل عبقرى ..

ـ أحسنت .. لنبدأ عملنا إذن !

لكن الطبيب الشاب بدا مصرًا ، وهو يتابع :

ـ المشكلة الآن تكمن فى ثلاث نقاط ، وهى كيف دخل إلى الغرفة ؟ كيف قتل الفتاة وحطم الغرفة ، دون أن تسمع أختها أى شىء ؟ وكيف خرج فى النهاية ؟!

أجابه هو بنفاد صبر :

ـ إجابة السؤال الثانى أن أختها كانت فى الخارج حينذاك .. أما الأول فلا يهم .. كل القتلة يستطيعون الدخول دائمًا ..

ـ ماذا عن الثالث ؟! كيف خرج ؟!

لا مفر إذن ..

هذا الوغد سيجعله ينطق بالكلمة التى ظل أكثر من عشرين عامًا يحاول تجنبها ..

ـ لا أدرى ..

قالها باقتضاب .. بغضب .. بفشل .. بخجل ..

ـ لنحاول أن نعرف إذن ..

هتف بعصبية :

ـ كيف ؟!

أجاب الطبيب الشاب بحماس :

ـ دعنا نستعيد ما حدث عمليًا .. هل بقايا الحطام موجودة هنا ؟!

ـ نعم ..

ـ عظيم ..

قالها واتجه إلى باب المشرحة ليغلقه من الداخل بإحكام ، ثم تابع وعينيه تلمعان حماسة :

ـ والآن نحن فى (غرفة مغلقة) تمامًا كما كانت هى .. أين بقايا الحطام ؟!

أشار إلى مجموعة من الأكياس ، موضوعة على المنضدة ، دون أن ينطق ، مراقبًا إياه بعينيه ..

أما هو فأخذ يتفحصها بعناية ، ولعشر دقائق كاملة ، قبل أن يقول :

ـ والآن دعنا نتخيل المكان .. لقد كان السرير هناك فى الركن الأيسر من الغرفة على سبيل المثال .. والغرفة مضاءة بمصابيح النيون ، وثمة مرآة ذات بروز خشبى على الحائط ، وخزانة ملابس قرب السرير .. لقد كانت هى تجلس على السرير أو نائمة عليه حين دخل القاتل .. لا يهم كيف ظهر كما اتفقنا من قبل .. السؤال هو ، هل قتلها على الفور ؟!

ـ لا أعتقد .. هناك جروح قطعية فى باطن الكفين وفى الذراعين .. إنها جروح مقاومة على الأرجح ..

ـ هذا يعنى أنها كانت مستيقظة حين ظهر ..

تسلل الحماس إليه نوعًا ما ، ففحص الجثة بعينيه ، قبل أن يجيب :

ـ ثمة خدوش وشظايا زجاجية ، تركت جروحًا (ما قبل الوفاة) .. أى إنه حطم الغرفة ، قبل أن يقتلها ..

ـ عظيم .. لماذا ؟

ـ ليخفى الأدلة على الأرجح ..

ـ لا أعتقد .. كان ليفعلها بعد قتلها ، لو أن هذا هدفه ..

ـ لماذا إذن ؟!

ـ لا .. أدرى ..

الآن تتعادل الكفتان !

لقد منحه عجز الطبيب الشاب ، شعورًا عارمًا بالراحة ..

ـ دعنى ألقى نظرة على البقايا أولاً ..

وأخذ يفحص البقايا ، بعينين تحملان عشرين عامًا من الخبرة ، وإذ اعتدل أخيرًا ، قال :

ـ هل تساءلت عن سر وجود هذه ؟

قالها ورفع بين أصابعه بقايا شمعة سوداء ، حدق فيها الطبيب الشاب باستغراب قبل أن يقول :

ـ لم أقف كثيرًا عندها .. ربما استخدمتها لأن التيار الكهربى انقطع أو ...

ـ لو كان التيار الكهربى قد انقطع لفتحت النافذة ، هذا هو رد الفعل الطبيعى لأى امرأة .. ثم لماذا تحضر شمعة وتشعلها ثم تغلق الباب والنافذة عليها من الداخل ؟ ألا تجد هذا غريبًا ؟!

ـ بالطبع ..

ـ ثم هناك هذه البقايا الورقية .. هل لاحظتها ؟ لقد مزقها أحدهم بعناية فائقة ، وبعضها يحمل دماء جافة ، بالتأكيد دماء الضحية ، لكن هل جاءت هذه الدماء قبل أم بعد قتلها ؟

عاد الانبهار إلى عينى الطبيب الشاب ، وهو يقول :

ـ وما المكتوب فى هذه الورقة ؟!

ـ دعنا نجمعها لنرى ..

وعلى الرغم من أن عملية جمع البقايا الورقية ، كانت مرهقة ومملة ، إلا أنه كان يشعر بنشاط غير عادى أورثه إياه الحماس فى عينى الطبيب الشاب ، والرغبة فى معرفة ما يحدث .. أو ما حدث بالفعل ..

فى الغرفة المغلقة ..

« هل تفهم شيئًا من المكتوب ؟!! »

قالها الطبيب الشاب بعد نصف ساعة ، قضياها فى جمع الورقة ، ليحدقا بعد ذلك فى الرمز الغريب الذى تراصت أسفله كلمات بلغة أغرب ، وقد أخفت آثار الدماء الجافة ، معظم الحروف لتزيد الأمر تعقيدًا ..

ولم يملك هو نفسه من الانفجار صائحًا :

ـ لا أعرف ما هذا .. لقد مللت هذا كله .. نحن نضيع وقتنا بلا طائل .. ربما لم تكن لهذه الورقة علاقة بالجريمة أساسًا .. لنترك للشرطة مهمة العثور على القاتل ، ولننته نحن من ...

« مهلاً .. لقد نسينا الشمعة »

قاطعه الطبيب الشاب بهذه العبارة ، ثم تناول الشمعة بلهفة ، وأخرج علبة ثقاب من جيبه ، أشعل بها بقايا الشمعة السوداء ، قبل أن يثبتها على المنضدة أمام الورقة ، ليقول :

ـ أعتقد أنه يجب أن نغلق المصباح ..

ودون أن ينتظر رده كان قد ضغط على الزر بالفعل ، ليهوى الظلام على المكان إلا من ضوء الشمعة المتراقص ..

ـ ألن ينتهى هذا السخف ؟!

ـ لحظة أرجوك ..

صمت منتبهًا إلى حقيقة بالغة الأهمية ..

لو لم يستطيعوا تفسير ما حدث ، ستكون هذه هى أول جريمة كاملة تمر عليه فى تاريخه كله ..

الجريمة الكاملة التى ظنّ أنها خرافة لا وجود لها .. عنقاء الطب الشرعى كما اعتاد أن يسميها .. وها هى العنقاء تنفض رمادها وتعلن عن مولدها ..

لا ..

هناك حل حتمًا .. بالتأكيد هناك حل ..

لقد اعتاد أن يلعب لعبة الاختلافات العشرة حين كان صبيًا ، وكثيرًا ما كان يتوقف بعد الاختلاف الرابع أو الخامس ، ليشعر على نحو يقينى أنه لا يوجد سواها ..

لكنها كانت هناك .. دائمًا كانت هناك !!

الآن ليلعب اللعبة بصورة جديدة .. صورة فريدة من نوعها ..

على اليمين صورة فتاة تجلس فى غرفتها ، تقرأ على فراشها .. وعلى اليسار صورة الغرفة المحطمة ، والفتاة جثة تسبح فى الدماء ، رأسها فى ركن الغرفة !

أين الاختلافات العشرة إذن ؟

السرير لم يعد موجودًا .. واحد ، المرآة تحطمت .. اثنان ، المصباح تحطم .. ثلاثة ، خزانة الملابس تحولت إلى شظايا .. أربعة ، الرأس فى ركن الغرفة .. لم يكن مكانه هناك .. خمسة ، عظيم لقد اقترب .. الدماء فى كل مكان .. ستة ، ماذا أيضًا ؟ آه .. الورقة الممزقة .. سبعة ، والشمعة السوداء .. ثمانية ، والمفتاح .. تسـ ...

المفتاح !

المفتاح ! المفتاح ! المفتاح !

لقد أغلقت الغرفة من الداخل ، كما قالت الأخت ، فأين المفتاح إذن ؟

وقذف بجسده تجاه المنضدة ، التى تحمل على سطحها بقايا الحطام ، فى تلك الأكياس البلاستيكية ، ليبدأ فى فحصها بلهفة أفقدته صوابه ..

« وجدتها !! »

هتف بها الطبيب الشاب بغتة ، وقد التمعت عيناه بنظرة عجيبة ، أرغمته على التحديق فيه بدهشة ، والطبيب الشاب يواصل ، موجهًا حديثه إلى الفراغ :

ـ الجروح القطعية فى باطن كفيها لم تكن جروحًا دفاعية .. هى أحدثتها بنفسها .. هى أسالت دماءها على الورقة ..

ثم وجه كلامه إليه فجأة ، متسائلاً بلهفة مجنونة :

ـ أين مشرطك ؟ ... ناولنى إياه حالاً .. لا .. لا داعى .. ثمة واحد معى .. ها هو ..

وأخرج المشرط من جيبه .. حدق فيه لحظة على ضوء الشمعة .. ثم ـ وبلا تردد ـ شق باطن كفه ، لتسيل منه الدماء على الورقة ..

« هراء .. هراء .. كل هذا هراء .. لا توجد جريمة كاملة »

صرخ هو بهذه العبارة بمزيج من الانتصار والعصبية والشعور بالخلاص ، ثم تابع :

ـ دعك من هرائك هذا .. إنها ليست جريمة غرفة مغلقة ، فالضحية لم تغلق الباب على نفسها من الداخل .. المفتاح لم يكن معها .. ليس موجودًا ضمن البقايا .. كل هذا كان بلا طائل ..

فاجأه ذلك الصمت الذى أجاب به الطبيب الشاب ، وتلك النظرة العجيبة فى عينيه ..

ـ أجب يا هذا .. لقد انتهى الأمر ..

كررها وأخذ يحدق فى الطبيب الشاب الذى همس فجأة :

ـ لقد .. فهمت .. ما فى الورقة .. لقد أخطأت هى .. ونحن كررنا الخطأ .. يا لنا من حمقى .. لقد استحضرناه ...

صرخ هو بعصبية :

ـ انس هذه الورقة .. لقد انتهى كل شىء .. لقد ..

لكنه بتر عبارته ، ليطلق شهقة فزع هائلة ، حين طار رأس الطبيب الشاب بغتة ليسقط فى ركن الغرفة !

وللحظة ظل الجسد واقفًا بلا رأس ، ثم هوى دفعة واحدة لتدوى الطرقات .. طرقات بدت وكأنها لآلاف المطارق ، تهوى على كل شىء فى المشرحة محيلة إياه إلى حطام متناثر ..

وأمام عيناه الجاحظتان بهلع ، أخذ كل شىء فى الغرفة يتطاير ويتحطم و ...

وسقط المفتاح وسط الحطام المتناثر تحت قدميه ..

وفهم كل شىء ..

فهم فى تلك الثانية قبل أن يطير رأسه من على جسده !

فى الغرفة المغلقة !

★ ★ ★

طــرقــات

لكنى أبدًا لم أجرؤ على النزول إلى الأسفل ..

لا أحد فى مكانى كان ليجرؤ !

★ ★ ★

وحيدًا كنت منذ نشأتى .. منذ ولدت .. بل منذ استضاف جسدى روحى فى رحم أمى ..

شىء واحد لم أفهمه منذ ولدت ويبدو أننى لن أفهمه أبدًا .. لماذا يوجد آخرون ؟!

ألا يمكن للإنسان أن يكون وحيدًا قط ؟

طبعًا لكم أن تتخيلوا محاولات أمى اليائسة لتغيير هذه الفكرة المجنونة فى ذهنى ، ولكم أن تتخيلوا أيضاً ردودى حين كنت طفلاً يظن أن أحلامه قابلة للتنفيذ لو أعلن هذا ..

ـ الآخرون موجودون ؛ لأن الله خلقهم ..

ـ لماذا ؟

ـ لنكون معًا .. لا يمكن أن تعيش بمفردك ..

ـ لكنى أريد أن أحيا وحيدًا ..

ـ حين تكبر ستدرك أن هذا مستحيل ..

لكنها كانت مخطئة ..

كانت أمى هذه الوحيدة التى استطعت تحملها من الآخرين لكنها الآن تركت عالمنا وتركت لى الآخرين .. لكننى استطعت أن أخلق لنفسى عالمى الخاص .. وأن أكون وحيدًا ..

لن أطيل عليك ، لكننى نجحت بميراثى فى شراء منزل منعزل فى المقطم ، وكان من حظى أن مهنتى لا تتطلب اختلاطًا بالآخرين .. وبالطبع لم أتزوج ولن أفعل !

منذ متى بدأت المشكلة إذن .. آه .. منذ أسبوعين .. ربما ثلاثة ، لست أذكر .. كنت حينها أتناول طعام الغذاء الذى ابتعته وأنا عائد من العمل عندما بدأت الطرقات !

ولكن دعنى أصف لك الفيلا أولاً لتتخيل المشهد معى .. طابقان .. الأسفل به الردهة وغرفة المكتب والملحقات ، والطابق العلوى لغرفة النوم ، وغرفة أخرى مغلقة ، أرجو أن تبقى مغلقة هكذا إلى الأبد ، وأخيرًا قبو رطب مظلم لا أستخدمه عادة يقود إليه باب خشبى مغلق من الخارج ..

وعندما دوت الطرقات أول مرة ، دوت على هذا الباب بالذات .. ومن الداخل !

بالطبع احتبس الطعام فى حلقى ثم أخذت أسعل حتى دمعت عيناى ، وعندما استطعت التنفس أخيرا ، كان الخاطر الوحيد فى ذهنى هو .. إذا كان القبو خاليًا من الداخل ، والباب مغلق من الخارج ..

فمن .. الذى .. يطرق .. عليه .. من الداخل ؟!

وكما بدأت الطرقات فجأة انتهت فجأة .. لكن صداها تردد فى أذنى طويلاً ..

ثم لم ألبث أن ابتسمت ابتسامة من يحدث نفسه ، وأقنعتنى أن وحدتى بدأت تصيبنى بالهلاوس ، ثم واصلت تناول طعامى بهدوء ..

على الأقل الطرقات لم تتكرر فى هذا اليوم مجددًا ..

لكنها تكررت بعد ذلك .. وكانت مختلفة حينها ..

* * *

تكررت الطرقات بعد يومين .. لا .. ثلاثة أيام ..

نعم .. بعد ثلاثة أيام ..

اليوم الذى تشاجرت فيه مع ذلك الأخرق الذى صدم جانب سيارتى بسيارته .. من المؤكد أن هذا (الشىء) لم يحصل على رخصة قيادته إلا بمعجزة أو وساطة ، والاحتمال الثانى هو الأقرب فى بلد تخلو من المعجزات ..

المهم .. أتذكر أننى عدت إلى منزلى مكدرًا ، إلى وحدتى الخالصة بعيدًا عن كل الأوغاد الذين يقودون سيارتهم لمجرد أن يصطدموا بى ، وبعد أن انتهيت من طعامى دون طرقات هذه المرة ومن بعض الأعمال المعتادة ، صعدت إلى حجرة نومى وبدأت فى ممارسة طقوس قراءة ما قبل النوم ..

وكانت الساعة الحادية عشرة مساء عندما عادت الطرقات ثانية .. لكنها كانت مختلفة هذه المرة ..

كانت قوية بحق .. مخيفة كالموت .. واثقة كالقدر ..

أذكر أننى انتفضت فى فراشى هلعًا ، قبل أن أتمالك نفسى لأهرع إلى الأسفل ، متمنيًا أن تكون هذه الطرقات على باب الفيلا ، لا باب القبو ..

لكنها كانت من داخل القبو .. حيث من المفترض ألا يتواجد أحد ..

ولخمس دقائق وقفت أرتجف عاجزًا عن فهم ما يحدث ..

الحل الوحيد هو أن أفتح الباب وأنزل إلى القبو ..

لكننى أبدًا لم أجرؤ على النزول إلى أسفل !

إن أى أحمق يدرك أن الموضوع ليس موضوع لص أو هلاوس !

إنها طرقات شخص يريد أن يخرج ..

يخرج ؟!!

من .. بل .. ما الذى سيخرج ؟؟!!

أصابتنى الفكرة بهلع لا حد له ، حتى إننى تراجعت غريزيًا إلى الوراء مع دوى الطرقات وقد توصلت إلى أنه ثمة شىء واحد لا ينبغى علىّ فعله أيًا كان الثمن ..

لا يجب أبدًا ومهما كان الثمن أن أفتح باب القبو .. أبدًا ..

منحنى هذا القرار قدرًا من الشجاعة ، بما يكفى لأعود إلى غرفتى حيث سأتظاهر بالنوم حتى تنتهى هذه الليلة .. ليطرق من يطرق كما يشاء له ، فلن يؤثر هذا على قرارى أبدًا ..

وهكذا استمرت الطرقات بإيقاعها الرتيب المخيف لنصف ساعة ثم توقفت فجأة ، كأنما أصاب صاحبها الملل ..

عندئذ استطعت أنا أن أنام .. كانت هذه آخر مرة استطعت فيها النوم !

* * *

الطرقات لم تسمح لى بالنوم بعد ذلك قط ..

لقد بدا الأمر وكأن صاحب الطرقات يراقبنى ، يعرف متى أذهب إلى النوم .. ثم يبدأ فى الطرق المجنون على كل شىء !!

نعم .. كل شىء ..!!

لم يعد الأمر يقتصر على باب القبو ، بل شمل الجدران والأسقف وزجاج النوافذ والأرض كل ما يمكن الطرق عليه أو حوله ..

كل شىء .. وكأنما أصبحت الفيلا علبة صغيرة يهوى عليها طفل مجنون بمطرقة ..

بالطبع جربت كل شىء بدءًا من دس وسادة فى أذنى ، وحتى الأقراص المنومة ، لكن صاحب هذه الطرقات لم يكن يرحم .. لقد كان يريد الخروج وبأى ثمن !

وببطء واثق بدأت أدخل مرحلة (فليكن ما يكون) .. تلك المرحلة التى تتخذ فيها أغبى قرارات حياتك على الإطلاق ، والتى لم تكن لتتخذها لوكنت تحظى بالقدر الكافى من النوم أو الطعام ..

لكننى لم أنم منذ أربع أيام حتى الآن ، وسأصاب بالجنون لو استمر هذا الوضع ، وبما أن ترك المنزل ليس من الخيارات المطروحة أمامى ، فالخيار الوحيد الذى أملكه إذن هو أن أدخل بنفسى إلى القبو لأرى .. لأفهم .. وليكن ما يكون ..

* * *

كان الوقت صباحًا حين قررت فتح القبو إذ لم أكن أحمق لأفعلها ليلاً ..

فى يدى حملت كشافًا يدويًا ، وفى يدى الأخرى قبضت على سكين ضخم ، كسلاح للضرورة ثم اتجهت إلى باب القبو ..

أزحت المزلاج .. لملمت شجاعتى ودفعت الباب ، ليرسم ضوء الكشاف الشاحب طريقى أمامى ..

السلالم الخشبية .. الجدران العتيقة .. شباك العناكب التى ارتجفت من الهواء الذى اقتحم القبو أخيرًا ، وأنا أقف أمام كل هذا أقاوم رغبتى فى الهرب .. يجب أن أفهم .. يجب ..

إن كنت أريد أن أتناول طعامى فى هدوء .. أن أنام مجددًا .. أن أظفر بوحدتى التى حاربت من أجلها طويلا .. يجب أن أرى بنفسى سر هذه الطرقات ..

وهكذا اتخذت طريقى الى أسفل متسائلا عما ينتظرنى ..

لا شىء .. كل ما أظهره لى ضوء الكشاف هو قبو خال رطب به خزانة حديدية ، كنت ألقيتها فيه منذ أن جئت هنا .. عدا ذلك .. لا شىء ...

ألقيت نظرة أخرى على المشهد أمامى ثم أعدت ضوء المصباح على الخزانة الحديدية مجددًا ، ثم اقتربت منها .. نزلت على ركبتى .. عبثت قليلاً فى القفل ثم .. ثم اخترقت الرائحة الشنيعة مسام أنفاسى كالسهام ..

يا إلهى !!

كان يجب أن أضع هذا الرأس الآدمى فى الفورمالين !

وأمام الرأس المقطوعة فى الخزانة بدأت ومضات من الذكريات ، تومض فى مخيلتى التى عذبها الأرق ..

أنا أقود سيارتى عائدًا إلى المنزل .. الوقت متأخر ، أقاوم النعاس .. أقاوم ألا أنام وأنا أقود .. أقاوم ألا أصطدم بهذه السيدة التى تعبر أمامى ..

ولكننى استيقظت على صوت اصطدام سيارتى بها قبل أن تطير من أمامى تاركة بقعًا من الدماء على الزجاج ..

أذكر أننى لم أصب بالهلع حينها .. بل كنت فى حالة من الصفاء الذهنى التى سمحت لى باتخاذ القرار السليم .. أنا لن أدفع حياتى ثمنًا لواحد من (الآخرين) .. أبدًا ..

الحل هو الهرب دون ترك أدلة .. الطريق لا يستخدمه أحد عادة ، مما يمنحنى بعض الوقت ..

وهكذا خرجت من السيارة .. تأكدت من أن السيدة التى صدمتها قد لفظت أنفاسها ، ثم أفرغت حقيبتها وجيوبها من أى شىء يدل على هويتها .. ثم تبقى شىء واحد ..

التخلص من أهم شىء يدل على هويتها .. رأسها !!

وعندما استقر الرأس أخيرًا فى حقيبة سيارتى أدركت أننى قد أخفيت جميع الأدلة .. جثة بلا رأس قد تثير ألف تساؤل واحتمال ، إلا أن تكون حادثة طريق عادية ..

سيظل هذا الرأس معى حتى أنسى كل شىء عنه كعادتى ، لكننى لوتذكرت سأدفنه فى مكان ما ..

كان هذا منذ سنوات .. والخزانة ملقاة وبها الرأس منذ ذلك الوقت فى القبو ، فما الذى استجد هنا ؟؟

إن الأمر كـ .. مهلا .. لقد تركت باب القبو مفتوحًا ورائى .. سامحًا بخروج أى أحد وأى شىء !

انتفضت لأتقافز على السلالم الخشبية ، خارجًا من القبو لأغلق بابه خلفى بإحكام ..

حسن .. إن الأمر لا يحتاج لتفسير الآن .. إنها روح السيدة التى أمتلك رأسها فى قبوى !

لا أدرى ما الذى أخرها طيلة هذه الفترة ، لكن لا بأس .. إنه حقها على أية حال ..

ومع إدراكى لهذا كله ، تخلصت من حالة الهلع ، وعاد لى صفاء ذهنى ..

وبمنتهى الهدوء ، اتخذت القرار السليم ..

القرار الوحيد فى الواقع ..

* * *

كان الوقت ليلاً هذه المرة ..

وكنت أحمل هذه المرة إلى جوار الكشاف والسكين دلوًا كبيرًا ممتلئ بالبنزين ..

هذه المرة سأتخلص من الأدلة نهائيًا ..

وبيد واثقة فتحت المزلاج ثم دفعت الباب ، لتهب الرائحة الشنيعة فى وجهى .. لابد أننى نسيت باب الخزانة الحديدية مفتوحًا ..

وبذات الثبات نزلت على الدرجات الخشبية .. ما هى إلا دقائق قليلة وسأنعم بعدها بالوحدة مجددًا .. ها هى الخزانة الآن أمامى ...

اقتربت منها وسددت ضوء الكشاف فيها مقاوما غثيانى و ... و ...

وأين ذهب الرأس الذى كان فى الداخل ؟؟!!

الطرقات !!

يا إلهى الطرقات .. لم يكن صاحبها يبغى الخروج من القبو ، بل كان يريدنى أن أدخل !!

ودوت تلك الخطوات الثقيلة خلفى لأستدير فى هلع ، تاركًا الدلو يسقط من يدى ، ناثرًا البنزين فى كل مكان ..

وأمامى كان شبح السيدة يقف على عتبة السلم ... شبح بلا رأس ينظر إلىّ بحقد بلا عينين !

هنا لم أتمالك نفسى فاندلعت الصرخات الهستيرية من حلقى لترددها جدران القبو كضحكة عابثة ..

تقدم شبح السيدة خطوتين تجاهى ثم اختفى !

للحظة التمعت الأرض بوميض عجيب ، ثم بدأت زهرة النار الأولى تنبت فى الأرض المشبعة بالبنزين .. تزدهر .. تنتشر ..

لحظات وتحول المكان إلى أتون ملتهب ، فكتمت أنفاسى ، وأسرعت متجهًا إلى سلم القبو لأبدأ فى الصعود و ... و ...

وكانت هى تنتظرنى أعلى السلم .. حاملة رأسها المخيف بين يديها ..

وهكذا توقفت أنا عاجزًا عن التفكير أو الحركة ..

مدركًا أننى أبدًا لن أجرؤ على الصعود إلى أعلى !

* * *

الآن لم يتبق من هذا كله إلا أنقاض منزل محترق ، وعمال إنقاذ يرفعون هذه الأنقاض دون أمل فى العثور على أحياء .. إنهم محقون فى هذا ..

أما أنا فعلىّ التكيف مع حياتى الجديدة كشبح !

المشكلة هنا هى أننى لست وحيدًا ..

هناك (آخرون) !

* * *

ليـلة واحـدة ..

المشهد الأول .. ليل داخلى

المشهد لغرفة نوم بسيطة ، يبدو عليها قلة النظافة والترتيب ، كأنما هى غرفة نوم عازب ، حيث الملابس ملقاة هنا وهناك ، وبقايا طعام جافة على المائدة جوار الفراش ، وضوء القمر القادم من النافذة يتيح لنا رؤية هذا كله ..

يدخل الأستاذ (علاء) من زاوية الكادر ، مرتديًا ملابس النوم المعتادة ، يتثاءب بعمق ، ويتحرك بخطى ناعسة تجاه الفراش .. يتوقف لحظة ليلقى نظرة سريعة على الغرفة ، ثم يلوّح بيده بضجر ، ويكمل طريقه للفراش .. لقد اعتاد هذا المستوى من القذارة ، وحين يبلغ الأمر حدًّا لا يطاق ، سيرسل لتلك البدينة التى نظفت له الشقة مرة ، لتسلبه خمسة جنيهات كاملة ..

يغلق النافذة ، وينزع الروب المنزلى ثم يندس تحت الأغطية الثقيلة ـ يبدو أنه الشتاء ـ ويفتح المصباح الصغير المجاور له ، ثم يبدأ فى قراءة كتاب ضخم ذى غلاف صقيل كتب عليه« الفن فى التاريخ الإنسانى » .. إنه شخص وحيد محبط إذن ..

لا أحد يقرأ « الفن فى التاريخ الإنسانى » إلا اذا كان محبطًا ووحيدًا ..

يمكننا الآن أن نلقى نظرة أوضح على (علاء) .. شاب فى الثلاثينيات من العمر ، خفيف الشعر على نحو ينبئ بصلع قادم لامحالة ، يرتدى نظارة ضخمة العدسات ذات إطار عريض ، بينما تبدو الشعيرات النامية فى ذقنه ، كأنما مرّ عليها زمن طويل .. فى الواقع ، لو قربنا الكاميرا لزاوية فمه ، لرأينا بقايا الطعام على هذه الشعيرات .. إذن (علاء) محبط ووحيد ولا يعتنى بنظافته جيدًا ..

الساعة الآن الواحدة صباحًا ، ويبدو أن النعاس قد أصبح حاكم هذه الليلة ، لذا يمد الأستاذ (علاء) يده ليلقى الكتاب على المائدة ثم يغلق المصباح ، لتغرق الغرفة فى الظلام ..

تبتعد الكاميرا ببطء ، ثم تبدأ فى التحرك إلى خارج الغرفة .. إلى ممر ضيق مظلم .. ثم إلى الردهة المظلمة إلا من بصيص ضوء قادم من النافذة ..

المشهد صامت تمامًا .. ثم نسمع صوت قطرات ماء ، تصطدم بالنافذة .. قطرات قليلة متباعدة فى أول الأمر ، ثم الهدير المخيف للرعد ، يعقبه سيل من الأمطار يضرب النافذة بحرقة ..

ترتفع الكاميرا لتمنحنا مشهدًا بانوراميًا للردهة المظلمة .. ثم ..

يضرب البرق بضوئه المكان ، لنتمكن للحظة من أن نرى تفاصيل الردهة ، حيث يقف هذان الاثنان !!

تفاصيل .. أية تفاصيل ؟؟ إنهما يرتديان عباءات سوداء تغطى جسديهما تماماً ،وتكفلت الظلال بإخفاء ملامحهما ، ثم إن المشهد أضىء لثانية واحدة ..

يضرب البرق بضوئه من جديد لنجدهما يتحركان .. يتحركان تجاه غرفة النوم ..

تدور الكاميرا بنعومة لتصبح خلفهما وتسير معهما مهتدية بضوء البرق الذى يومض المكان من حين لآخر ، حتى يقف هذان الاثنان أمام فراش الأستاذ (علاء) الذى يغط فى نوم عميق ..

يومض البرق مرة أخرى لنرى أحد الاثنين يرفع يده وبها جسم معدنى لامع ، ثم يختفى الضوء ليغرق المشهد أمامنا فى الظلام ، ثم نسمع صوت صرخة مكتومة يبدو أنها صرخة الأستاذ (علاء) ، ثم ...

ثم يسكن المشهد تماماً ..

المشهد الثانى .. ليل خارجى ..

يضىء المشهد أمامنا ببطء ، لنرى أننا فى غابة ..

الغابة مظلمة وتبدو مخيفة مقبضة ، مع سيل الأمطار عليها ، والبرق يلتمع ليضيف إلى المشهد كآبة عجيبة ، والموسيقى فى الخلفية متوترة ، تنذر بالويل ذاته ..

تتحرك الكاميرا بنعومة تامة وسط الأشجار والأمطار ، وترتفع كطائر إلى أعلى ، ثم تهبط لترينا ذلك المشهد العجيب ..

على الأرض الطينية الغارقة فى المياه ، يقف الغامضان بثبات تام ، رغم الريح الشديدة التى تعبث بحرملتيهما ، وأمامهما يتدلى الأستاذ (علاء) وقد التف حبل غليظ حول عنقه ، وطرف الحبل الآخر مربوط فى جذع الشجرة .. مشنقة !!

الأستاذ (علاء) يقف على مقعد خشبى ، قصير الأرجل ، مكمم الفم ، ويتلوى بحذر ، فى عينيه نظرة ذاهلة مذعورة ..

جسده مبتل .. كدمة فى جانب وجهه .. يداه مقيدتان وراء ظهره .. لا يزال يرتدى ملابس النوم التى يبدو أنها لا تناسب هذا الطقس على الإطلاق .. كل هذه تفاصيل مهمة للمشهد ..

تقترب الكاميرا بحركة ثعبانية حتى تملأ أرجل المقعد الخشبى القصيرة المشهد ، وقدما الأستاذ (علاء) تجاهدان للثبات فوقهما ،مع تصاعد تدريجى فى حدة الموسيقى ..

فجأة ! تقتحم قدم أحد الغريبين المشهد لتطيح بـالمقعد من أسفل قدمى الأستاذ (عـلاء) ، فيدوى صوت تحطم فقراته العنقية كهدير الرعد ، وقد بلغت حدة الموسيقى ذروتها ..

الآن تتحرك الكاميرا حركتها الثعبانية المجنونة فى اتجاه عكسى ، لنرى المشهد الكلى مرة أخرى ، مع تغير واضح ..

إن الأستاذ (علاء) قد تحول لجثة شاخصة البصر ..

ترتفع الكاميرا أكثر فـأكثر .. ثـم تظلـم الشاشـة أمامنـا ببطء ..

وينتهى هذا المشهد ..

* * *

المشهد الثالث .. ليل داخلى ..

يفتح المشهد على وجه الأستاذ (علاء) ، لا تبدو عليه أى علامة من علامات الحياة ، بل على العكس تمامًا .. عيناه شاخصتان .. لسانه يتدلى نصفه خارج فمه .. الكدمة فى جانب وجهه تنضم لذلك الشحوب المخيف لترسم لنا لوحة وجه شخص ميت ..

الكاميرا عمودية على وجه الأستاذ (علاء) لنرى أنه عارى الجذع .. تدخل يد فى قفاز أسود إلى المشهد لتدس شيئًا ما فى فمه .. تبتعد اليد ويعود المشهد لجموده بضع لحظات ، ثم يبدأ الدخان فى الخروج من فم الأستاذ (علاء) !!!

الدخان غير كثيف ولا يحمل لونًا مميزًا ، يتوقف بعد لحظات ، ثم تقترب الكاميرا قليلًا من عينى الأستاذ (علاء) .. للحظة يبدو كل شىء كما هو ... ثمة نرى جفن عينيه اليمنى يرتعش ..

ثم تبدأ عيناه فى الحركة المحمومة !!

أيًا كان ما حدث ، فلقد استعاد الأستاذ (علاء) وعيه ، وها هو يحرك عينيه فى كل اتجاه كأنما يستكشف المكان من حوله ..

تبتعد الكاميرا قليلاً لنرى أنه ممد على فراش معدنى قذر ، فى غرفة ضيقة صخرية الجدران ، يتدلى من سقفها شىء أشبه بالوعاء يحتوى على مادة مشتعلة تضىء المكان بإضاءة رديئة ..

وهكذا نتمكن من رؤيتهما .. رؤية الغامضين اللذين بدأا هذا كله ..

أحدهما يقف عند ركن الغرفة أمام مائدة خشبية عتيقة ، وقد فتح أمامه كتاب ضخم مهترئ ، لا يمكننا تمييز ما كتب فيه .. أما الثانى فينحنى على وعاء معدنى ضخم ، وضع على حطب مشتعل ، فى شىء أشبه بالمدفأة ، وتغلى بداخله مادة ما ..

من الملاحظ أن هذا المشهد صامت تمامًا .. صامت لدرجة أننا نكاد نسمع صوت حركة عينى الأستاذ (علاء) فى محجريهما ..

المدقق فى المشهد يستطيع تمييز وضع رأس الأستاذ (علاء) بالنسبة لجسده .. يستطيع أن يميز أن هذا الوضع مستحيل تمامًا .. بالنسبة لشخص على قيد الحياة على الأقل !!

على كل حال لنترك هذا المشهد ، ولنتابع حركة الكاميرا التى تركز هذه المرة على الغامض الأول الذى يقرأ فى الكتاب العتيق .. الكاميرا تقف جواره ، لذا نراه يهز رأسه بفهم ، ثم يخرج من عباءته لفافة جلدية ، يفردها أمامه على المائدة ..

ها نحن نرى بفزع ما بداخل العباءة .. مشرط صدئ .. بضع سكاكين غريبة المظهر ، تحتاج إلى جراح ممارس ليتعرف على أسمائها اللاتينية .. ثم مسحوق فى لفافة أصغر ..

يهز الغامض رأسه برضا مرة أخرى ، ثم يتناول المشرط ويتجه به إلى الأستاذ (علاء) الذى لا يملك سوى عينيه ليصرخ بهما ..

يهز الغامض رأسه برضا مرة ثالثة ، ثم يضع نصل المشرط على صدر الأستاذ (علاء) وبدون أن تصحب هذه اللقطة موسيقى تصويرية - لا يحتاج الأمر لمزيد من التوتر - يجذب المشرط على صدر الأستاذ (علاء) !!!!

ثم يظلم المشهد لحسن حظنا !!

* * *

المشهد الرابع .. ليل داخلى ..

هذا المشهد والمشاهد التالية هى ما يسميه السينمائيون (فوتو مونتاج) ، أى لقطات متتابعة سريعة .. وسيكون الانتقال بين هذه المشاهد بطريقة الإظلام (Fade out) والتنوير (Fade in) .. والآن ..

تنوير ..

الكاميرا تمنحنا زاوية لا بأس بها لنرى جسد الأستاذ (علاء) ، مسجى علىالمائدة ، ودماء كثيرة تسيل من تجويف ، كان صدره فى وقت من الأوقات ..

إظلام ..

تنوير ..

الغامض الثانى الذى كان يعبث فى الوعاء ، يضع فيه أشياء داكنة اللون ـ نحن نعرف ما هى ـ فى الوعاء ، وقد تلوثت يداه بالدماء ..

إظلام ..

تنوير ..

الغامض الأول ، يلف جسد الأستاذ (علاء) بأربطة طويلة من الكتان .. يحنطه فى الواقع ، ولو كان أحدكم قد مارس التحنيط من قبل ، فلا بد أنه قد فهم ما يحدث !!!

إظلام ..

تنوير ..

الآن نرى أن الأستاذ (علاء) ـ سابقًا ـ قد تحول لمومياء ، لازالت عيناها تتحركان بجنون !!

المشكلة أننا لا نرى من هما الغامضان بسبب تلك العباءات السوداء العجيبة هذه .. ولا نفهم لماذا يفعلون ما يفعلونه ، وما الذى يحدث هنا بالضبط .. وهذا هو السبب الرئيسى الذى سيجعلنا نواصل ..

هذا هوالسبب الرئيسى الذى سيجعلنا نعرف المعنى الحقيقى لكلمة هلع !!

* * *

المشهد الخامس .. ليل خارجى ..

الآن نعود للغابة ، والكاميرا تمنحنا منظور الطائر الذى يعرفه أى رسام .. والمشهد كما تركناه منذ قليل .. سيل من الأمطار .. الرياح تعصف بالأشجار كأنما ستقتلعها من جذورها .. الأرض الطينية الزلقة ، والغامضان لا يشعران بهذا كله ، يحملان تابوتا مغلقا أعتقد أننا نعرف من فى داخله ، ويتوقفان أسفل جذع شجرة ضخمة فى حجم مبنى من طابقين ، ليضعا التابوت أرضا ، ثم وبدون أن يتبادلا أى كلمة ، جثيا على ركبتيهما ، وبدأا يحفران بأيديهما فى الطين ..

تدور الكاميرا حول المشهد ، ليملأ جذع شجرة الشاشة أمامنا للحظات ، نعود بعدها إلى الغامضين ، لنجدهما ينزلان التابوت فى الحفرة ، وهو تكنيك سينمائى ذكى لتجنب إضاعة الوقت .. بعد هذا تواصل الكاميرا دورتها ، ويختفى المشهد مرة أخرى خلف جذع شجرة أخرى ، ونعود للمشهد لنجد أنهما يقفان أمام القبر الذى انتهيا منه ، والأمطار الغزيرة تغسل أى أثر لما حدث على السطح ..

لقد انتهت مهمتهما عند هذا الحد ، والآن سيعودان من حيث أتيا ..

الآن ترتفع الكاميرا وتحلق فوق الغابة كطائر أسطورى .. الآن نرى أن هذه الغابة تبدو مخيفة بحق .. شىء ما غير طبيعى فيها لكننا لا ندرك ما هو بالضبط .. الآن تظلم الشاشة ببطء ، لينتهى هذا المشهد ..

* * *

المشهد السادس .. ليل خارجى ..

نعود إلى الغابة ، لنرى أن الأمطار قد خفت قليلاً ، والفجر بدأ يشق طريقه بصعوبة ، وسط الغيوم المتناثر فى السماء ، تتسلل خيوط الضوء من وسط هذه الغيوم ، لتعلن مولد جديد ..

الكاميرا ثابتة على مكان قبر الأستاذ (علاء) أسفل تلك الشجرة ، ولا يصاحب هذا المشهد أى موسيقى على الإطلاق ، فلا نسمع سوى صوت الأمطار التى قلت غزارتها وهى ترتطم بالأرض الطينية اللزجة ..

يستمر هذا المشهد الثابت لثلاثين ثانية على الأقل ، لجذب انتباه المشاهد ، ثم تدخل تلك القطة الصغيرة من يمين الشاشة .. القطة صغيرة كأنها ولدت للتو ، مبللة ترتجف بردًا ، لو رأيتها لفقدت حذرك تجاه هذه الكائنات ، ولأخذتها فى حضنك ، لتطعمها ما شاءت ..

القطة تتحرك ببطء ، وتصدر مواء ضعيفًا ، وتتقدم أكثر فأكثر ، حتى تقف فوق مكان القبر تمامًا ، وهنا تتوقف عن الحركة ، وتأتى بحركات غريبة ، كأنها سمعت شيئًا ما .. شيئًا لا نسمعه نحن ..

تقترب منها الكاميرا ببطء لنرى أنها تحرك أذنيها فى كل اتجاه ، وهى تصدر مواءها الضعيف ، ثم .. ثم ..

ثم وفجأة ! تخرج يد من الأرض .. يد نحيلة تبرز عروقها ويغطيها الدم والطين ، تقبض على عنق القطة المسكينة ، وتجذبها بلا رحمة إلى أسفل الأرض !!

وتعود الكاميرا للابتعاد ، والشاشة تظلم ببطء ..

دون صوت ..

* * *

المشهد السابع .. نهار خارجى ..

يفتح المشهد على الغابة أيضا ، ولكن هذه المرة فى مكان مختلف ، والشمس المشرقة ، تغرق الأرض بنورها ، لنرى عائلة لطيفة من أب وأم وطفلتين ، يجلسون على مفرش منزلى على الأرض ، والأم تخرج الشطائر من حقيبة ضخمة جوارها ، لتوزعها على الجميع ، وهم يتبادلون الابتسام والضحك ..

عائلة خرجت للنزهة ، لا جديد فى هذا المشهد ، لكننا نلاحظ أن الكاميرا تركز نوعًا ما على الطفلة الصغرى ..

الطفلة هى ملاك صغير يضحك ويتقافز من هنا إلى هناك بسعادة تنشرها بلاحساب حولها مع كل ضحكة تخرج منها ..

صحيح أن تركيز الكاميرا يمنحنا إيحاء صريحًا أن شيئًا ما سيحدث لطفلة ، لكنها الحقيقة للأسف .. شىء ما سيحدث لهذه الطفلة !!

نراها تأخذ الشطيرة من أمها التى تداعب شعرها بحنان ، وتقضم قضمة صغيرة ، ثم تنقض فجأة على أختها الكبرى ، لتدفعها وهى تضحك ، قبل أن تنطلق فى العدو والأشجار تردد ضحكتها بسعادة ..

تلاحقها الكاميرا بين الأشجار من ظهرها ، وهى تجرى تلتفت من حين لآخر لتمنحنا إحدى ضحكاتها العذبة ..

ثم تتوقف الطفلة والكاميرا عند منطقة أصبحنا نعرفها جيدًا .. قبر الأستاذ (علاء) ..

عند هذه المنطقة تجلس الطفلة على الأرض تلهث ، ثم ترفع رأسها لترى المكان حولها ..

ثم لتبدد قليلاً من الصمت الذى أحاط بها ، تبدأ الطفلة بالغناء بصوتها الساحر :

ـ عارف الواد اللى اسمه عادل جاب دكتور ...

يتصاعد صوتها بالغناء ، ليغطى على جميع الأصوات ونراها تنظر إلى الأرض ، مكان القبر بالضبط ، وقد بدت الحيرة على وجهها الصغير ، وتتوقف شفتاها عن الحركة ، لكن صوت غنائها لا يتوقف ..

تقترب الكاميرا من وجهها ، ثم نراها تهرش رأسها بحيرة طفولية ، ثم تنفجر الأرض من خلفها ، واليد الرهيبة تخرج مجددًا .. (هذا اللقطة تنفذ بالتصوير البطىء وإلى نهاية المشهد) ..

ـ وعمله إيه ؟؟ .. إيه ؟؟

قطع إلى العائلة التى تنتفض وكأنها سمعت صرخة ، قادمة من بعيد .. صرخة يعرفون صاحبتها ..

ـ لقى رجليه بقوا زى الفتلة .. بص شوية جوا عنيه ..

قطع إلى الأب يجرى فى الغابة وهو يهتف ..

ـ راح مدّيله حقن كبيييييرة ..

قطع إلى الأم تصرخ وهى تحتضن طفلتها الثانية التى تبكى بحرقة ..

ـ عارف اداله الحقنة ليه ؟؟

قطع إلى مكان القبر حيث نرى فردة حذاء الطفلة ملقاة على الأرض ، وعليها قطرة دماء لم تجف بعد ..

ـ مابيشربش اللبن الصبح ..

قطع ..

* * *

المشهد الثامن .. ليل خارجى ..

ذات المكان الكئيب فى الغابة ، دون أمطار لهذه الليلة ، والكاميرا هذه المرة ترينا القبر من أعلى ، على ارتفاع شجرة تقريبًا ..

نرى الرمال تتحرك حركة خفيفة فى الأول ، ثم تزداد الحركة ، حتى نرى رجلًا غير واضح المعالم يخرج من الأرض زحفًا .. بالطبع نحن نعرف من هو ، حتى لو كنا لا نرى ملامحه ..

نراه يزحف خارجًا ، ثم يزحف مبتعدًا .. إلى أين يذهب ؟!!

سؤال مهم بالتأكيد ..

* * *

المشهد التاسع .. ليل داخلى ..

شقة الأستاذ (علاء) بذات الإهمال والقذارة التى كانت عليها حين رأيناها أول مرة ، وهى مظلمة إلا من ضوء القمر القادم من النافذة ، والكاميرا الآن فى الصالة ..

تتحرك الكاميرا ، متجهة إلى غرفة النوم المظلمة أيضًا ، لنرى أن كل شىء لا يزال على حاله ، ولنرى أن الفراش خاو ، لكن مع حركة الكاميرا الدائرية ، نرى ذلك الرجل الجالس على الأرض جوار الفراش ، ونتعرفه بصعوبة ..

إنه الأستاذ (علاء) ، لكن وقد نمت له لحية غير منتظمة ، واستطال شعر رأسه على الجانبين ، وجذعه عار من الملابس ، لنرى أنه نحل إلى درجة غير طبيعية ، بينما تومض عيناه فى الظلام بوميض أزرق غريب ..

هذا الشخص (كان) الأستاذ (علاء) !!

تتحرك الكاميرا حركتها الدائرية مرة أخرى ، لنرى الغامضين يقفان عند الباب ، يرتديان ذات العباءات السوداء .. يتقدمان نحوه ببطء واثق مخيف ، ثم يقفان أمامه مباشرة ..

وبلغة لا تمت للغتنا الأرضية بصلة ، وبصوت يبدو كالصدى ، يتحدث أحد الغامضين ، لنقرأ نحن الترجمة على الشاشة :

- لقد اكتمل تحولك أيها الفانى ..

نرى أن (علاء) ينظر إليهما بمقت واضح ، دون أن يجيب ، بينما يواصل الغامض :

- وأمامك ليلة واحدة حتى تستعيد جميع قواك .. بعدها ستسعى لبناء مملكتك ..

وينحنى الغامض حتى يكاد يلتصق رأسه بوجه (علاء) ، متابعًا :

- بعدها سنأخذ نحن زمام الأمور ..

وبذات البطء ، يرفع الغامض رأسه ، ويستدير مع رفيقه لمغادرة الغرفة ، تلاحقهما نظرات (علاء) الكارهة ..

- ليلة واحدة ..

يقولها الغامض دون أن يستدير ، ويغادر المكان ، فيقوم (علاء) من مكانه ببطء ، ليقف عند نافذة الغرفة ..

ومع الضوء الشاحب القادم من النافذة ، نرى صدر الأستاذ (علاء) ، ونرى تلك الخياطة الشنيعة التى أجريت فى صدره ..

نراه يمد يده ليتحسسها ، ثم يقول بذات اللغة العجيبة :

ـ ليلة واحدة ..

ثم تتبعه الكاميرا وهو يخرج من الغرفة .. يتجه للصالة .. ثم إلى غرفة أخرى كان بابها مغلقًا طيلة الوقت .. نراه يفتح الباب ، لتسبقه الكاميرا إلى الداخل ، ولنرى نحن تلك الجثة الملقاة على وجهها ..

جثة سيدة بدينة ، ترتدى جلبابًا قذرًا ، حافية القدمين ، ووجهها تجاه الحائط ، فلا نرى ملامحها ..

لقد كانت هذه السيدة تأتى لتنظف المنزل ، لتسلبه خمسة جنيهات كاملة ، أما الآن ..

أما الآن يمكننا أن نقول إنه قد استرد حقه منها بصورة أو بأخرى ..

ونسمعه يردد ، وهويدخل الغرفة ، مغلقًا الباب خلفه :

ـ ليلة واحدة ..

قطع ..

* * *

المشهد العاشر .. ليل خارجى ..

المبنى الذى يسكن فيه الأستاذ (علاء) من الخارج ، والأمطار تتساقط بكثافة معقولة ، وقد خوى الشارع تمامًا من أى حركة ، ونسمع صوت الرياح وهى تحرك الباب الخشبى للمبنى ..

يظهر الغامضان عند مدخل البناية ، ويتحركان إلى الداخل ، دون أن يصدر عنهما أدنى صوت .. ثم يتبعهم المزيد .. المزيد من الغامضين ..

يتحركون كقطيع منتظم ، وموسيقى ناعمة تصحبهم فى خلفية المشهد ، وكلهم يختفون داخل البناية ، فتنتظر الكاميرا قليلاً ، ثم تصحبهم إلى الداخل ..

نراهم يصعدون السلم ، بلا صوت ، ثم يدخلون واحدًا تلو الآخر إلى شقة الأستاذ (علاء) ، ليقفوا هناك فى الصالة المظلمة ..

الكاميرا الآن فى السقف ، لتمنحنا منظورًا أفقيًا للصالة ، والغامضون يقفون ، فيها ، بلا صوت إلا الموسيقى التصويرية ، ينتظرون الأستاذ (علاء) ـ سابقًا ـ الذى يخرج لهم من الغرفة ..

تهبط الكاميرا ببطء ، لتعرض لنا الأستاذ (علاء) بعد أن اكتمل تحوله ..

بصورة ما ازداد طوله .. وبصورة ما نمت له تلـك الأنياب التى تدلت خارج فمه .. وبصورة ما أصبـح جسده كلـه يشع بذلك الوميض الأزرق العجيب ..

يتحدث الغامض الأول فيقول بلغته العجيبة، لنقرأ نحن الترجمة :

ـ الآن أصبحت مستعداً أيها الفانى .. الآن حان الوقت لنعلن عن ظهورنا ..

يتحدث الأستاذ (علاء)، ليخرج صوته مغـايرًا تمامًا لما اعتدنا سماعه :

ـ كل شىء معد لاستقبالكم ..

ـ ما الذى تعنيه ؟!

تقترب الكاميرا (كلوز) على وجـه (عـلاء)، لنرى أنـه يبتسم، وهو يقول :

ـ أنتم لم تعطونى الخيار .. قررتم ونفذتم دون أن تمنحونى أى خيار ..

يرتفع صوت أحد الغامضين هادرًا مخيفًا :

ـ لقد منحناك الخلود أيها الفانى، وستطيعنا فى كل ما نأمرك به ..

ـ حقاً ؟!

ـ لا يوجد لديك خيار آخر ..

من الممكن أن تدور الكاميرا طيلة الوقت حول (عـلاء) والغامض الذى يحدثه، خلال الحوار السابق، حتى تتوقف على (علاء) الذى يرفع يده ببطء، وهو يقول :

ـ بل يوجد ..

نرى أنه يحمل فى يده قداحة أنيقة، فيتراجع الغامضون، ويبدو عليهم القلق ..

أو أنهم فهموا !!

تتحرك الكاميرا بسرعة هائلة فى الشقة بالطريقة التى اشتهر بها المخرج (ديفيد فينشر)، وتدخل المطبخ .. خلف الموقد، لنرى أن أنبوب الغاز مقطوع، ويصدر هسيسًا مسموعًا ..

وهكذا نفهم نحن ..

وبذات السرعة الخرافية تعود الكـاميرا، إلى يد (عـلاء) التى تشعل القداحة، ليبدأ اللون الأزرق ـ وبالتصوير البطىء ـ فى الانتشار فى المكان ..

قطع ..

* * *

المشهد الحادى عشر .. ليل خارجى ..

نرى المنزل من الخارج، ساكنًا للحظة، ثم تتفجر نوافذ منزل الأستاذ (علاء) فجأة ! ليخرج لسان هائل من اللهب مصحوبًا بدوى هائل، متجهًا إلى الكاميرا، لتغمر النيران المشهد كله ..

ثم يخمد لسان اللهب، لكن النيران لا تزال تتصاعد من نوافذ المنزل ..

يجمد المشهد على هذه اللقطة لثوان قليلة، ثم نرى الغامض الأول يخرج من البناية بذات البطء وذات الهدوء .. ثم يتبعه الباقون ..

لقد فشلت المهمة، لكن لا بأس ..

نسمع أحدهم يقول :

ـ سنضطر للبدء من جديد ..

ـ بالتأكيد سنفعل ..

لنعرف أنها ليست النهاية، لكن الشاشة تظلم ببطء، وتبدأ الأسماء فى الصعود على الشاشة بسرعة متوسطة، مصحوبة بموسيقى ناعمة ..

* * *

الغرفة فى نهاية الممر

يقول السيد (كريم) :

ـ « تريد قصة مخيفة ؟ حسن، سأحكى لك واحدة »

* * *

« هذه الأوراق عثروا عليها بعد أن انتشلوا إحدى الغواصات البريطانية التى غرقت إبان الحرب العالمية الثانية، كتبها أحد من كانوا داخل الغواصة، ولم يقرأها أحد إلا بعد الحادث بسنوات طويلة، لكنهم لم ينشروا هذه الأوراق قط، والسبب ستعرفه حالاً .. »

بهذه الكلمات بدأ السيد (كريم) حكاياته، فبادلته الابتسامة الهادئة، لأقول :

ـ لقد جذبت اهتمامى، لكنى أشك أنك ستثير خوفى ..

ـ لندع القصة تجيب عليك إذن ..

ثم إنه أخرج ملفًا قديمًا مهترئًا من حقيبته التى يحمل فيها حياته كلها، وفتحه على المائدة بيننا وبدأ يقرأ ..

* * *

سألخص كل شيء فى هذا التقرير ، فلا داعى للإطالة ؛ إذ إننى لا أعتقد أن أحداً سيقرأ هذه الأوراق على أية حال ، لكنها العادة التى تدفعنى للكتابة ، وحين تقترب نهايتك ستعرف قيمة عاداتك القديمة .. صدقنى ..

أنا الرقيب (جوناثان رايتز) .. لا أعرف تاريخ اليوم ولا يهمنى أن أعرفه ، فلا فائدة لهذا هاهنا .. تلك الرفاهيات لم يعد لها وجود على متن الغواصة (U – 78) .. معى هنا فى قمرة القيادة كل من (كارل هانسن) و(ويليام سلانج) ، وكلاهما يحمل ذات الرتبة ، وذات الوعد بالموت خلال يومين أوثلاثة على الأكثر .. فنحن الثلاثة أيها السادة ، آخر من تبقى على قيد الحياة على متن الغواصة (U – 78) !

القصة سهلة ولا تحتاج إلا لقليل من الاستنتاج ، غواصة ألمانية اعترضت طريقنا ، وأطلقت طوربيدها تجاهنا ، قبل أن نتمكن من الابتعاد بما فيه الكفاية ، والباقى لا يحتاج للاستنتاج بل للخيال .. أنت تسمع صرخة أحدهم يهتف أن طوربيداً ظهر على الرادار ويتجه نحونا بسرعة ، لتجد أن خلية النحل التى تدير الغواصة قد أصابها الخبال .. الكل يصرخ .. الكل يجرى .. الكل يضغط على أى زر يجده .. ضوضاء تعلو بانتظام مخيف .. تمتزج أصوات الآلات بصراخ الرجال بصلوات الجميع فى سيمفونية هائلة الإيقاع ، ثم يرتطم الطوربيد بجسم الغواصة ، لترتج روحك ذاتها فى جسدك .. وفجأة تخمد كل الأصوات ..

ما يحدث بعد ذلك لن يجدى معه أى خيال .. أنت لم تر مشهد المياه وهى تتدفق داخل غواصة موشكة على الغرق ، ولو رأيته لمت هلعاً قبل أن تموت غرقاً ، وأنا لم أره لكنى سمعت صرخات من رأوه فى القسم السفلى من الغواصة ، إذ تدفق الموت عليهم بلا حساب ..

كنت حينها فى قمرة القيادة ، لكن الصرخات كانت تدوى من حولى كأن جدران القمرة هى التى تصرخ ، ولم تتوقف الصرخات إلا حين هلك آخر من فى الأسفل ، بينما كنا نحن نعمل على عزل الأقسام الغارقة بمن فيها لننقذ ما يمكن إنقاذه .. لكن بعد فوات الأوان ..

المياه كانت تتسرب ببطء من الأسفل إلى الأعلى ، والأسوأ أن الغواصة بدأت أبطأ رحلة غرق عرفها تاريخ البحرية .. إنها اللحظة التى يكتشف فيها الناجون ، أن من غرقوا فى الأسفل كانوا أسعد حظاً منا بكثير ، والناجون كانوا قلة بالمناسبة ..

صحيح أن الغواصة ارتطمت بالصخور لتتوقف عن رحلتها المخيفة إلى القاع ، لكننا وإذ بدأنا نحصى الخسائر ، انتبهنا إلى حقيقة موقفنا الجديد .. نحن لن نتمكن من الصعود ، ولا نملك وسيلة اتصال صالحة بالعالم الخارجى ، والمصير الوحيد الذى ينتظرنا هوالموت جوعاً فى قلب المحيط البارد المظلم ..

لابد أن الذين غرقوا فى الأسفل يخرجون ألسنتهم لنا الآن !

وهكذا بدأ الناجون فى التناقص .. ومع تسرب المياه المستمر ، لم يتبق فى الغواصة مكان شبه جاف إلا قمرة القيادة والغرفة فى نهاية الممر حيث نقلنا جثث الذين هلكوا بردًا وجوعًا ويأسًا ..

يتناقص الناجون .. أكثر .. فأكثر .. على سطح الأرض يتركون زوجاتهم وأطفالهم وأصدقاءهم وذكرياتهم ، ليموتوا هم فى قلب المحيط ، فى غرفة فى نهاية الممر فى الغواصة (U – 78) ..

والآن أنا أجلس مع رفيقى ، لا نجد ما نفعله سوى أن نرمق الغرفة فى نهاية الممر ، متسائلين أينا سيدخلها أولاً ، والإجابة لم تعد تشكل فارقًا .. الأخير الذى سيتبقى فينا لن يجد من ينقله ..

على كل حال ، أنا لا أكتب لأحكى لكم هذا كله .. أى تقرير سيكتبه السادة المسئولون الذين تركونا نهلك هنا سيفى بالغرض ، إننى أكتب ما أكتبه لأحكى لكم عن الصوت الذى جاء من الغرفة فى نهاية الممر !

لقد بدأ الأمر فى اليوم السابق ، حين كنت أشترك مع (كارل) و(ويليام) فى آخر لفافة تبغ عثرنا عليها ، وأنا لست من هواة التدخين ، لكن من الحماقة أن أخشى على صحتى فى موقفى هذا .. أذكر أن (كارل) حاول تزجية الوقت بأن يسألنا :

– هل سيتذكرنا أحد فى الأعلى ؟ أعنى على سطح الأرض ..

– أعتقد أن أبى سيعلق صورتى فى صدر المنزل ، ليريها لكل أصدقائه .. وسيفخر على الدوام بأنه أبو البطل الذى غرق فى خدمة الملكة ..

كانت هذه من (ويليام) مشبعة بسخرية خفية ، فقلت أنا :

– لا أعتقد أن أحدًا سيتذكرنى .. لقد كنت مثيرًا للمشاكل على الدوام ..

– أما أنا فواثق أن (جين) ستبكى علىّ طويلاً ، وربما ستقضى ما تبقى من عمرها دون زواج ، احترامًا لذكراى ..

قالها (كارل) حالمًا ، فمازحه (ويليام) :

– هذا إن لم تكن قد تزوجت فعلاً .. حينها يمكنها أن تسمى ابنها باسمك احترامًا لذكراك ..

– مستحيل .. (جين) تحبنى أكثر مما تتخيل .. فى الليلة التى وصلنى فيها الاستدعاء ، أخذت تبكى بحرقة حتى كادت تفقد وعيها فرقًا ..

وشرد بعينيه ليواصل :

– (جين) هى الشىء الوحيد الذى سأفتقده على سطح الأرض ..

قلت أنا متناولاً منه لفافة التبغ :

ـ أما أنا فأفتقد اليابسة ذاتها .. مازلت عاجزًا عن تصديق أن نهايتى ستأتى بهذه الصورة ، جزء فى عقلى لايزال يتشبث بأمل أننى سأنجو ..

ـ إذن فأنت أحمق ، ولو أردت التأكد اذهب الغرفة فى نهاية الممر لتعرف أنها النهاية حقًا ..

أخرسنا رد (ويليام) لنعود إلى حالة الصمت التى لازمتنا فى الأيام الماضية ، ولم يتبق سوى دخان لفافة التبغ يتراقص من حولنا ، قبل أن يتبدد فى بطء ..

إنه على حق .. لا أمل فى النجاة .. لا أمل إلا إذا لجأت إلى ...

فى هذه اللحظة قطع الصوت حبل أفكارى .. فى هذه اللحظة سمعنا الصوت أول مرة ..

الصوت الذى انبعث من الغرفة فى نهاية الممر ، ليجمد الدماء فى عروقنا ، وليحيل ساعاتنا الأخيرة إلى كابوس مخيف ، قائلاً :

ـ كاااااااااااارل .. تعال إلى هنا .. لقد حان موعدك ..

ـ !!!!!!!!!!!!!!!!!!

* * *

« كاااااااارل .. إننى أنتظر .. تعال نمرح سويًا .. »

قالها الصوت القادم من الغرفة فى نهاية الممر .. صوت مؤلم .. صوت ماجن .. صوت مخيف ..

حتى دخان التبغ تجمد فى الهواء هلعًا ، فلك أن تتخيل حالنا نحن ، وأن تتخيل تعبير وجه (كارل) بالذات .. لابدّ أن وجوه من رأوا المياه وهى تتدفق عليهم فى الأسفل قبل أن يغرقوا لم تحمل كل هذا الشحوب ..

« كاااااااارل .. تعال إلى هنا .. لقد حان موعد موتك ! »

ثم دوت ضحكة ماجنة لا يمكن أن تصدر من بشر !! أحرقت لفافة التبغ أنمل (ويليام) فألقاها بألم ، وهو يصيح مختنقًا بالدخان :

ـ من .. من هذا ؟!

أجبته وعيناى معلقتان على وجه (كارل) الشاحب :

ـ هل سمعت الصوت أنت أيضًا ؟! .. أعنى .. إنه موجود حقًا ..

ـ بالطبع سمعته .. لكن .. كيف ؟!!

خرجت الإجابة من بين شفتى (كارل) شاردة ، موجهة للفراغ :

ـ إنه من الذين غرقوا .. لقد عادوا لينتقموا منا ..

ـ كف عن هذا العبث .. إننا نهلوس ، هذا كل ما فى الأمر ..

قالها (ويليام) بلا اقتناع ، ثم تعلقت عيوننا جميعًا بالغرفة فى نهاية الممر ، حيث نقلنا جثث الموتى .. وحيث عاد الصوت يقول :

ـ كاااااارل .. ألم أخبرك ؟ لقد أجهضت (جين) طفلك .. أجهضته بعد سفرك على الفور ، كان يجب أن ترى هذا المشهد ، كان يجب .. كانت هناك دماء كثيرة ..

هنا لم يحتمل (كارل) أكثر ، فهبّ واقفًا وهويصرخ بفزع :

ـ من هذا الشخص ؟! ... من أنت ؟؟

فأجابته الضحكة الماجنة الرهيبة .. أيًا كان هذا الشخص ، كل ما أرجوه هو ألا يأتى إلى هنا !

ـ الأجمل يا (كارل) أنها لم تحتمل عملية الإجهاض .. (جين) نزفت بعدها حتى الموت ، وبعدها رفض والدها حضور جنازتها .. لم يعد هناك ما تفتقده على سطح الأرض يا (كارل) .. والآن هيا تعال ..

صرخ (كارل) وقد استحال لون وجهه الشاحب إلى لون الدم :

ـ سأقتلك .. سآتى وأقتلك ..

وقبل أن نتمكن من منعه ، كان يعدو كالمجنون إلى الغرفة فى نهاية الممر ، حيث جثث الرجال وظلام المحيط .. وحين قمت لألحق به ، أمسك (ويليام) بمعصمى ليمنعنى ، وحين نظرت إليه مستنكرًا ، أجابتنى عيناه على ألف سؤال .. نعم .. لنر ما الذى سيجده (كارل) أولا ..

وهكذا وقفنا نرمق (كارل) الذى غاب فى ظلام الممر ، قبل أن يدخل الغرفة فى نهاية الممر ، والواقع أنه لم يدخلها فعليًا ..

ما رأيته بصعوبة بسبب الظلام هو أن (كارل) بلغ باب الغرفة ، ثم تكاثف الظلام حوله بصورة عجيبة ، قبل أن ينجذب جسده لداخل الغرفة بسرعة لا تصدق .. شىء ما داخل الغرفة جذبه !

لم يجد (كارل) الوقت ليصرخ .. ولم أسمع صوت (كارل) ولم أره بعد هذه اللحظة قط ..

ناديت (كارل) بتخاذل ، لكنه لم يجب .. أنا أعرف أنه لم يعد على قيد الحياة ليجيب ..

ومرت دقائق من الصمت الثقيل ، ثم قال (ويليام) :

ـ ما الذى حدث ؟!

ـ لا أعرف ..

ـ هل نذهب لنرى ؟!

ـ اذهب أنت .. أنا لن أبرح مكانى مهما كان السبب ..

كان الهلع يشل قدرتنا على التفكير ، وقبل أن نجد الوقت لنستجمع أنفسنا ، كان الصوت الماجن القاسى المخيف يقول :

ـ ويلياااااام .. إنه دورك ..

شهق (ويليام) بذهول وانتفضت أنا بخوف .. إنه دور (ويليام) ، وبعده يأتى دورى ..

لكن (ويليام) صرخ بعصبية :

- تعال وخذنى أيها الحقير ..

أجابه الصوت فى الغرفة فى نهاية الممر :

- كف عن العبث يا (ويليام) أنا وأنت نعرف الحقيقة ..

تسلل الارتباك إلى صوت (ويليام) :

- ما .. ما الذى تقصده ؟!

- لقد خدعوك .. الألمان عرفوا منك كل شىء عن الغواصة ومسارها، ثم هاجموها وأنت داخلها .. كان يجب أن تتوقع هذا ..

- أنت تكذب !!

- حقًا ؟! (فرانز دايشتن) .. أليس هذا اسم ضابط الاتصال الذى بعته الأسرار ؟ لماذا لا تأتى هنا يا (ويليام) ؟! سنتحدث قليلا .. وسنمرح كثيرًا ..

وجلجلت الضحكة لترتج الغواصة كلها .. أما أنا فكنت فى حالة صدمة كاملة ..

(ويليام) جاسوس للألمان !! كل ما نحن فيه الآن وكل الذين هلكوا ، وذلك المصير المخيف الذى يواجهنا .. كل هذا لأن (ويليام) خائن حقير ؟!! لحسن حظه أننى لا أملك سلاحًا أو قدرة على القتال .. لكنه لو مات الآن سأتمكن من استغلال وسيلة الهرب الأخيرة ..

وأمام نظرة الاتهام التى سددتها له ، قال (ويليام) :

- إنه يكذب .. لا تصدقه ..

- أنت .. خائن ؟!!

- إنه يريد خداعك .. حتى لو كنت خائنًا ، فمن هو؟! وما الذى يريده منا ؟!!

كنت أعرف أنه محق فى هذه النقطة على الأقل ؛ لذا قلت :

- ما الذى سنفعله إذن ؟!

أجابنى (ويليام) هامسًا :

- يجب أن نعرف من هو هذا الشخص أوالشىء .. ونقتله ..

- كيف؟! هل سنذهب إليه ؟!

- إننى لا أجرؤ على فعل هذا .. لكنى سأحاول أن أخدعه ..

وهكذا رفع (ويليام) عقيرته صائحًا :

- لماذا لا تعيد إلينا (كارل) أولاً ؟ .. بعدها يمكننا التحدث ..

أقسم أننى لم أعرف المعنى الحقيقى لكلمة (جنل) إلا حين سمعت الصوت فى الغرفة فى نهاية الممر ، يقول :

- تريدان (كارل) .. لا بأس .. سأرسل لكما (كارل) ..

وأرسل إلينا (كارل) ..

ولم نتمالك أنفسنا من الصراخ هلعًا مما رأيناه ..

* * *

كان الظلام يغلف ما أمام الغرفة فى نهاية الممر ، لكننا رأينا (كارل) .. ولم نتمالك أنفسنا فصرخنا مما رأيناه !

لا أعرف كيف أصف المشهد ، لكنى سأحاول تقريب الصورة لذهنك .. تخيل جثة رجل تسير تجاهك بحركة ميكانيكية بطيئة مخيفة .. تخيل أن هناك شيئًا ما يتحرك أسفل جلد هذه الجثة كأنه سائل يغلى .. تخيل أن الرأس يسقط على الصدر بزاوية ذات دلالة .. تخيل أن هذه الجثة كانت صديقك منذ دقائق معدودة الذى يتناوب معك على لفافة التبغ الأخيرة ..

تخيل أن الصوت الرهيب الماجن ، كان يصدر من أعماق جثة (كارل) ليقول :

- هأنذا قادم إليكما .. انتظرانى .. هى هى هى ..

ثم الضحكة الماجنة التى لم يكد (ويليام) يسمعها حتى انتفض ، ليصرخ :

- إنه هو ...

لم أجرؤ على إصدار أى صوت أرد به عليه ، ولم ينتظر هو ردًا .. بل اندفع إلى باب قمرة القيادة ، ليغلقه فى وجه الهول المتجه نحونا ، وكانت تلك هى اللحظة التى اتخذت فيها قرارى ..

إما الآن أو لا للأبد .. وهكذا اندفعت خلف (ويليام) لأضربه على مؤخرة رأسه بكل ما أوتيت من قوة ، ليسقط خارج قمرة القيادة وهو يصرخ بألم مستنكر .. لكنى لم أضع الفرصة بل دفعته بقدمى بغلظة ، وأغلقت باب القمرة علىّ من الداخل ..

قبل أن يتهمنى أحد بالخسة ، أذكركم أن (ويليام) جاسوس خائن ، بسببه هلك جميع من كانوا فى الغواصة (U — 78) .. جميعهم عدا (كارل) بالطبع !

بالطبع كنت ألهث لفرط الانفعال ، بينما بدأ (ويليام) يطرق على باب القمرة بهستريا من الخارج ، وهو يصرخ :

- (جوناثاااان) .. ما الذى تفعله أيها الأحمق ؟!!

لكنى لم أجبه .. والآن يأتى دور وسيلة الهرب الأخيرة من هذا الجحيم ..

- (جوناثان) افتح .. أرجوووك !

أنا أعرف أن هناك منفذًا عبر قمرة القيادة ، إلى غرفة سرية تحتوى على كبسولة لشخص واحد ، يمكنها أن تنقلنى إلى السطح .. هذا السر هو أخطر أسرار الغواصة (U — 78) على الإطلاق ، وأنا أعرفه لأننى كنت أهوى العبث فى أوراق الجنرال قائد الغواصة بانتظام ..

- (جوناثان) .. إنه قادم نحوى .. أسرع وافتح الباب ..

طيلة الوقت وأنا أعرف هذا السر ، لكنى لم أجرؤ على استخدامه فى وجود آخرين على استعداد تام لقتلى ليخرجوا هم من الغواصة ، لذا كان علىّ أن أنتظر حتى اللحظة التى أصبح فيها بمفردى ..

- (جوناثان) .. إنه ..

ثم دوت صرخة (ويليام) هائلة مريعة ، حتى إننى ظننت أنها ستقتلع باب القمرة ، وسمعت بعدها صوت عظام تتهشم بوحشية ، ثم توقف (ويليام) عن الصراخ .. وعن الوجود !!

أنا أعرف أن هناك منفذًا .. لكن أين هو بالضبط ؟!

- جوناثاااااااااااان .. لم يعد هناك سوانا ..

يقولها الصوت المخيف ، فأشعر ببرودة عجيبة تغمرنى .. لقد حان دورى ..

لكن لا .. سأعثر على المنفذ الآن ، وسأخرج من هنا .. وهكذا بدأت رحلة بحثى فى قمرة القيادة ، والصوت يواصل :

- جوناثاااااااااان .. افتح الباب .. سأريك شيئًا سيروق لك حقًا ..

ثم دوت أول ضربة على باب القمرة المعدنى ، فقفزت متراجعًا بفزع ..

لقد انبعج الباب المعدنى السميك لشدة الضربة .. لا يوجد بشرى قادر على تسديد مثل هذه الضربة للباب !

ضربة أخرى وينهار الباب .. لذا أخذت أبحث كالمجنون بلا أمل حقيقى فى النجاة ..

- جوناثاااااااان .. لا تحاول الهرب .. أنت آخر من أحتاجه ، بعدها يمكننى العودة ..

ضربة أخرى على الباب المسكين ، كاد ينخلع لها قلبى ، بينما انبعج الباب أكثر .. إنها الضربة القادمة إذن ؛ لذا قررت أن أجاريه لأكسب بعض الوقت ، فصحت :

- تحتاجنى فى ماذا ؟!

- لأتغذى يا جوناثااان .. إننى أحتاج للغذاء كما تعلم لأتمكن من الاستمرار .. لا تهرب لأنك لو هربت سأتبعك إلى السطح ، وربما ذهبت بعدها إلى اليابسة ، وصدقنى .. أنت لا تريد لمن هم مثلى أن يصلوا إلى اليابسة .. يمكننى حينها أن أذهب لوالدتك المريضة فى مستشفى (كامبريدج) ، لأخبرها أنك لم تكن ولدًا مهذبًا يا جوناثاان ..

هنا توقفت عن البحث وقد استبدت بى حالة عجيبة لا أعرف كيف أصفها بالضبط ..

هذا الشىء القادم من أعماق المحيط ، حيث تختفى درجات اللون ويسود السواد ، ليتغذى على جثثنا ، ولن يتوقف أمام أى عائق .. هذا الشىء كان ينتظر طويلاً ، وها هى فرصته ..

ضحكة ماجنة مريعة ، ثم ضربة أخرى على الباب الذى لا أصدق أنه احتمل هذا كله ..

إنه على حق .. لا يجب أن يصل مثل هذا الكيان إلى اليابسة .. لا أعرف ما هو ولا أريد أن أعرف ، لكنى واثق من أنه يجب منعه من الوصول لليابسة ..

لذا اتجهت إلى تلك الخزانة المعدنية الضخمة ، وبدأت أدفعها تجاه الباب لأدعمه .. هذا لن يحل المشكلة لكنه سيمنحنى الوقت اللازم .. والآن علىّ أن أستعيد تركيزى لأبدأ فى العمل على لوحة القيادة ..

تحمل الغواصة (U – 78) ستة طوربيدات لم تتمكن من إطلاقها .. ست طوربيدات قادرة على إغراقنا وإنهاء حياتى وحياة ذلك الشىء الذى جاء إلينا من الغرفة فى نهاية الممر !

نعم .. هذا هوالحل الوحيد .. المهم أن أنفذها كما يجب .. لن أرهقك بالتفاصيل ، لكن المطلوب ببساطة هوأن أطلق الطوربيدات بينما الكوة التى تخرج منها مغلقة ، حينئذ ستنفجر فى الداخل .. التنفيذ ليس بهذه البساطة ، لكننى سأحاول ..

لكننى وإن كنت سأغرق الغواصة (U – 78) فيجب علىّ أن أكتب السبب علهم يعثرون على البقايا ذات يوم من الأيام ، حينها سيعرفون ما الذى حدث بالضبط .. وهذا ما أفعله الآن ..

أحكى لكم حقيقة ما حدث ، بينما الضربات تنهال على باب القمرة ، تخالطها الضحكة الماجنة الشيطانية التى يبدو أنها ستكون آخر ما أسمعه فى هذه الدنيا ..

أنا (جوناثان رايتز) وهذه هى لحظة النهاية .. الباب ينهار أخيرًا بينما يدى معلقة على مفتاح إطلاق الطوربيدات والآن أرى هذا الشىء على حقيقته أخيرًا و ... و ...

.. ..

* * *

« هذه هى نهاية الأوراق .. »

يقولها السيد (كريم) لأخرج بصعوبة من حالة الذهول ، لأقول :

ـ قصة عجيبة حقًا .. لكنها صعبة التصديق ..

يبتسم السيد (كريم) ، ويقول :

ـ أنت على حق .. إنها صعبة التصديق ، لكن (جوناثان) كتب هذه الأوراق ، ووضعها فى صندوق خاص فى الغواصة ليضمن أنها لن تتلف ، وأن أحدهم سيعثر عليها فى يوم من الأيام ..

- ربما كانت هلاوس رجل يموت وحيداً فى غواصة غارقة ..

- ربما ولكن ..

وتتسع ابتسامة السيد (كريم) أكثر :

- لكنهم حين انتشلوا بقايا الغواصة (U – 78) لاحظوا شيئاً غريباً .. الغواصة لم تحتوعلى أى جثة من جثث الرجال الذين غرقوا داخلها .. ربما كانت الأسماك .. لكن .. أى أسماك هذه التى لا تترك حتى العظام خلفها ؟!

وصمت ، فصمت أنا أيضاً أقلب الأمر كله فى رأسى .. ولسبب ما شعرت بالقشعريرة تغمرنى ..

وفى النهاية قلت :

- على كل حال تبدو قصة لا بأس بها .. لكننى أتوقع المزيد ..

تراخى السيد (كريم) فى مقعده الوثير ، وشبك أصابعه على صدره ، ليقول بهدوء :

- ستحصل على المزيد ولكن ! فى المرة القادمة ..

* * *

قصة العدد

الليـلة التاسعة

روايـــــة

من الماضى

صفحات غابرة من القرن الثامن عشر

الممر الحجرى الكئيب .. المضاء بالمشاعل ذات اللهب المتراقص ، ملقيًا بتلك الظلال المتراقصة الرهيبة .. رقصة النار المجنونة الخالدة ..

الوزير بحركته التى تكسبه وقارًا ، يليق بوزير الملك (جورج الثانى) يقطع الممر بخطوات سريعة ، تعكس توتره البادى فى ملامحه ..

قطع الممر ، ليستقبله الحارسان بتحية صاخبة ، تجاهلها وهو يلف إلى تلك القاعة الضخمة المضاءة بعشرات المشاعل ، مانحة إياها هيبة واضحة ، أضيفت إلى هيبة طبيعة المكان ذاته ..

بلاط الملك (جورج الثانى) نفسه !

وعلى عرشه استوى الملك (جورج) ، وقد أخذت عيناه البارزتان القاسيتان ، قسوة ملك مملكة لا تغيب عنها الشمس ، تتابعان الوزير الذى امتثل أمامه لينحنى باحترام بالغ ، قائلا بصوته الذى لم تؤثر فى قوته السنون :

ـ مولاى ..

دوى الصوت الجهورى ، صوت الملك يقول :

ـ ماذا عندك يا وزيرى ؟

فرد الوزير قامته ، وقال متحاشيًا النظر فى عينى الملك :

ـ لقد استفحل الأمر يا مولاى .. استفحل وأخشى أن تأتى اللحظة ، التى يخرج فيها من أيدينا ..

ـ أمر ماذا ؟؟

ـ أمر ذلك البيت يا مولاى .. البيت المسكون !!

خرج صوت الملك (جورج) حاملاً برودًا يكاد يطفئ لهيب كل المشاعل فى القاعة :

ـ ماذا عنه أيها الوزير ؟

تسللت العصبية إلى صوت الوزير رغما عنه ، وهو يجيب :

ـ لقد فاقت سمعة هذا البيت الحدود .. والناس يخشونه كالموت ذاته ولا أحد أصبح يجرؤ على الدنو منه .. إنهم يطالبون بهدمه ...

ـ يطالبون بهدمه لأنهم يخشونه ؟ لماذا لا نقتل الوزراء أيضا ما داموا يخشونهم هم ايضا ؟!

أسقط فى يد الوزير وقد منحه ملكه واحدة من ردوده الباترة الشهيرة .. لكنه لم يتمالك نفسه ، من أن يقول بتخاذل :

ـ ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟!

انحنى الوزير باحترام ، قائلا :

كما تشاء يا مولاى ...

والتفت مغادرًا القاعة الملكية تاركًا الملك ..

وانتظر الملك حتى غادر ، ثم قام من على عرشه ، ليذهب إلى ممر آخر خلف العرش أضاءته المشاعل ، متجها إلى غرفة الملكة (كارولين) ...

وعلى باب الغرفة ، هبت الوصيفات ، ليستقبلن الملك بمزيج من الرهبة والخوف ، ليقول هو بصرامة :

ـ هل الملكة مستيقظة ؟

أجابته إحدى الوصيفات على الفور :

ـ نعم يا مولاى ..

ودون أن يرد عليها دخل إلى غرفة الملكة ، التى رقدت فى فراشها شاحبة ، وأمارات الإعياء تطل من وجهها ومن سعالها المتقطع ..

وبصرامة خلت تماما من الإشفاق سألها :

ـ أما زلت ترفضين التحدث ؟

أدارت (كارولين) له عينين متثاقلتين بالمرض وخرج صوتها متحشرجاً محملاً بالوهن ، وهى تجيب :

ـ لا أملك شيئاً لأجيب به مولاى ..

ـ بل تملكين .. تملكين سر هذا البيت !

قالها بلهجة صارمة مخيفة ، استقبلتها هى بضعف ، وهى تكرر :

ـ لا أملك شيئا أجيب به مولاى ..

التمع الغضب فى عينى الملك (جورج الثانى) وبدا ، وكأنه سيصدر أمرًا بإعدامها وعلى الفور .. ولكنه تمالك نفسه ليقول بصوته البارد المخيف :

ـ لقد منحتك أكثر من فرصة يا (كارولين) ويبدو أنك لم تتركى لى الخيار .. سيهدم المنزل غدًا ...

أطلقت الملكة سعلة خفيفة ، وقالت وهى تغالب فقدان الوعى .. وربما الحياة ذاتها :

ـ لن يستطيع مولاى !

ارتجفت شفتا الملك غضبًا أمام هذا التحدى السافر ، وعكس صوته كل غضبه ومقته ، وهو يقول :

ـ سنرى ..

وغادر الغرفة بخطوات سريعة قبل أن يفقد أعصابه ويخنقها بيديه !!

ولم يكد يفعل ، حتى نادت الملكة بصوتها الواهن على إحدى وصيفاتها :

ـ « مارتا » ...

دخلت الوصيفة العجوز على الفور إثر ندائها قائلة :

ـ أمر مولاتى ..

انتزعت الملكة الكلمات من حلقها انتزاعا ، وهى تقول :

ـ ثمة سر يجب أن أفضى إليك به يا (مارتا) ...

لست أظننى سأستمر أكثر من هذا ...

خفق قلب الوصيفة العجوز وجلاً ، والملكة تتابع :

ـ يجب أن يحافظ أحدهم على السر ...

وزاغت عيناها أكثر فأكثر ، إذ أردفت :

ـ سر البيت الملعون ..

واستحال وجل الوصيفة إلى فزع !!!

* * *

حدث فى هذه الليلة ...!!!

وهكذا وجد (يوسف يحيى) نفسه فى تلك القاعة ..

الرائحة الخانقة الرطبة .. وأضواء المشاعل المتراقصة تمزق الظلام إلى ألف ظل .. وضربات قلبه فى صدره تنبض بالخوف والهلع ..

والفضول !

ذلك الفضول القاسى العجيب ، يجرى فى عروقه ويدفعه إلى المواصلة ..

يجب أن يعرف .. يجب أن يفهم ..

ومهما كان الثمن ..

ونظر إلى الممر المظلم الذى جاء منه ، وتساءل ..

كيف سيخرج من هنا ؟!

لا بأس .. لنترك هذا لوقته .. المهم أن يبقى حيًا ليخرج ..

وبعينين شاردتين أخذ يرمق القاعة أمامه .. خاصة تلك المائدة الخشبية ، التى تراصت حولها المقاعد وتناثرت فوقها الشموع .. إنها تناديه .. تطلب منه الجلوس .. وذلك الدفتر العتيق .. عليها .. يطلب منه أن يفتحه .. أن يقرأه .. فهل يجرؤ ؟؟

واستجمع شجاعته .. جر قدميه جرًا وتقدم .. ثم بلغ المائدة ليجلس على أحد المقاعد .. وبيدين مرتجفتين مد يده الى الدفتر ليفتحه ...

ثم انتبه بغتة إلى شىء .. بالغ الأهمية ..

يجب أن يدون ما حدث .. يجب .. ليترك حقيقة ما حدث فى دفتره ، لعل أحدهم يجده فيعرف ما حدث ..

وهكذا أخرج يوسف دفتره وقلمه ، وبدأ يكتب :

« ها أنا قد بلغت تلك القاعة المخيفة ولا أعرف حتى كيف سأخرج منها بعد ذلك .. ولا كيف سينتهى هذا كله .. ولكنى لم أعد أهتم .. إننى على استعداد لبذل حياتى ذاتها مقابل أن أفهم ما حدث لى .. إنها لحظة الحقيقة كما يقولون .. فإما الآن أو لا للأبد !

على كل حال ، لقد كان كل ما مررت به قاسيًا بحق ويستحق أن أظفر بتفسير من أجله .. ولئن تخاذلت ، لكنت قضيت حياتى كلها ، أتساءل عن سر ما حدث ..

عن ماذا كان يختبئ خلف تلك الأحداث الرهيبة ..

لهذا إن لم أخرج من هنا ، أرجو أن يجد أحدهم هذا الدفتر ليفهم ويعرف ..

لقد سجلت فيه كل ما حدث ومنذ الليلة الأولى و ... مهلاً ...

ثمة صوت ما !!!

صوت خطوات قادمة من الممر المظلم الذى أتيت أنا منه !!!

نعم لست أهذى .. إنها خطوات .. وخطوات أكثر من شخص .. أيضاً ...!!!

أشعر بالخوف ولا أملك أن أذكر هذا .. ترى هل رأى أحدهم المشهد فى الأعلى وجاء ليستقصى .. ربما .. لقد اقتربت الخطوات على كل حال ...

يا إلهى .. لايمكن أن يكون ما أراه حقيقة .. إنه مستحيل .. مستحيل !!!!

* * *

ولكن .. أعتقد أنه يجب أولا أن نعرف الأحداث منذ البداية منذ الليلة الأولى ..

* * *

الليلة الأولى

منذ بدأ كل شيء !!

فرك ذلك العجوز ، ذو الذقن النامية ، والجلباب القذر كفيه ، وقال :

– هه .. هل أعجبتك ؟!

ألقى (يوسف) نظرة على الغرفة الضيقة ، بعدم رضا واضح إلا أنه قال :

– لا بأس ..

– لقد قلت إنك تريد مكانًا هادئًا .. أليس كذلك ؟!

– نعم .. قلت ...

عاد العجوز يفرك كفيه ، قائلا :

– إنك لن تجد مكانًا أكثر هدوءًا من هنا .. كما أن الإيجار مناسب و ...

قاطعه (يوسف) بنفاد صبر :

– أعرف .. أعرف .. هاك.

– وناوله بضعه أوراق مالية تلقفها العجوز بلهفة ، هاتفًا :

– شكرا يا سيدى .. سأتركك لترتاح ..

وغادر الغرفة على الفور تاركًا (يوسف) بحقيبته على الفراش المتهالك ، مجيلاً بنظره فى أثاث الغرفة المتواضع ، المتكون من منضدة خشبية ومقعدين ، لا يصلح أحدهما للجلوس !

ثم فتح باب الشباك ليلقى نظرة على المنطقة المحيطة .. حقًا .. لقد صدق العجوز .. لا توجد منطقة أكثر هدوءًا من هنا ... من المقابر ..

وأمام المشهد الكئيب المطل من النافذة أخذ (يوسف) يفكر ..

ها هو قد ظفر بالمكان الهادئ الذى ينشده ليبدأ فى كتابة الرواية التى يحلم بها .. تلك الرواية التى يعقد عليها أمله فى النجاح ككاتب ..

صحيح أن إمكاناته المادية لن تسمح له بإيجار هذه الغرفة أكثر من شهر ، ولكن لا بأس ..

ربما بحث عن عمل ليدر عليه دخلاً مؤقتًا حتى ينتهى من كتابة الرواية .. ولكن الآن ما عليه سوى أن يفرغ تفكيره للكتابة .. للكتابة فحسب ...

سينام الآن ويستيقظ مساءً ليبدأ طقوس كتابته المعتادة .. وجبة خفيفة وقدح من « الكاكاو » الساخن .. ورزمة من الأوراق البيضاء تنتظر أن تمتلئ بالحبر ..

وصامتًا بدل ملابسه بأخرى للنوم .. مدد جسده على الفراش المتهالك .. أغلق المصباح الوحيد فى الغرفة ..

ونام ..

وعندما دقت الساعة العاشرة مساء استيقظ ليبدأ فى ممارسة طقوسه ..

اغتسل ، ثم أكل طعامًا معلبًا ، ثم جلس على المقعد الخشبى أمام رزمة الأوراق على المنضدة ، والأبخرة تتراقص على سطح كوب « الكاكاو » ..

أمسك قلمه وبدأ يعتصر أفكاره ..

مرت نصف ساعة .. ساعة .. ساعتان .. بعدها أدرك أنه لا يملك ما يكتبه !!

خواء فكرى تام !!

وبسخط ألقى بقلمه ، ليحدق بعينين شاردتين فى قدح « الكاكاو» الذى برد منذ زمن ...

عن ماذا يكتب ؟؟ إنه لا يعرف !!

إنه ذلك الشعور السقيم بأنك كنت تملك الفكرة .. فكرة تتقافز داخل جمجمتك وكأنما ترجوك أن تكتبها .. أن تمنحها الخلود على الورق .. ولكن ما إن تقترب منها .. ما إن تحاول أن تقبض عليها بأصابعك .. حتى تكتشف أنك كمن يحاول أن يمسك بخيط من الدخان ..

لقد تبددت الفكرة من رأسه كما يتبدد خيط الدخان !

وشاعرا بالحنق قام من على مقعده وخرج من الغرفة مزمعًا التجول قليلا بين المقابر عله يجد فكرة يبدأ بها ..

استقبله نسيم الليل البارد ، ليثير بين أوصاله تلك الرجفة الأولية ، ثم استنشق نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره وأخذ يتجول بين شواهد القبور الرمادية ، وبرهبة غمغم لنفسه :

ـ إنه مكان موحش حقًا !!

وتغلبت غريزة الاستكشاف فى أعماقه على كل هذا ، فأخذ يجول بين الشواهد الباردة وكأنما يبحث عن فكرة بينهم ، بينما ذلك الشعور المعتاد بالرهبة من الموت والمقابر ، يجد طريقه داخله كأى بشرى آخر !

إنه ذلك الخاطر الرهيب المرير ، بأن تلك الحجارة تحوى أسفلها رفات العشرات .. عشرات كانوا يحيون ويفكرون ويحلمون ويحبون ، ثم انتهى بهم الأمر إلى التراب .. وسيأتى دوره ليلحق بهم آجلا أو عاجلا ..

« مهلاً .. ما هذا ؟!!

* * *

انقطع حبل أفكاره وهو يحدق فيما قادته إليه قدماه بعجب بالغ ، مغمغما بالعبارة السابقة ، بلهجة تفوح بالدهشة والاستغراب !!

فأمام عينيه تراصت ستة قبور ، فى دائرة كاملة ، بعدت بضعة أمتار عن باقى القبور ، وقد أحاطت بها دائرة من النباتات التى زحفت على شواهد القبور مطوقة إياها بسياج أخضر داكن منح المشهد هيبة عجيبة وكأنها لوحة كابوسية عن الموت !!

وأمام هذا المشهد وقف (يوسف) برهة مذهولاً قبل أن يملك السيطرة على قدميه مجدداً ليبدأ فى الدوران حول القبور ، باحثاً عن ثغرة وسط سياج الأعشاب لينفذ منها إلى مركز الدائرة ..

« أنت هنااااك » ؟!!!

انبعثت الصيحة من الظلام لتطيح بأعصابه ولتجعله يلتفت كالملدوغ إلى مصدر الصيحة .. اصطدمت عيناه بالعينين اللتين التمعتا فى الظلام ، ثم تبدت ملامح الوجه المتغضن ذى الشعيرات البيضاء النامية من خلفهما :

وكرر :

ـ أنت .. ماذا تفعل هنا ؟!!

انتزع (يوسف) الكلمة من خلفه ليلقيها :

ـ أنا أسكن هنا ..

ـ أنت الساكن الجديد إذن ؟!

ـ نعم ..

تحركت التجاعيد على جانبى وجهه لترسم ابتسامة ودودة ، وقال :

ـ مرحبًا ..

وكأنما أذابت ابتسامة العجوز خوفه ، هدأت نفس (يوسف) ، وأجاب :

ـ أشكرك .. هل لى أن أسألك من أنت ؟!!

ـ حارس هذا المكان ..

هز (يوسف) رأسه متفهما وأشار إلى نافذة غرفته المضيئة :

ـ هذه غرفتى .. انتقلت اليوم ...

جلس العجوز على إحدى الصخور الضخمة ، وأخرج من جيبه لفافة تبغ مكتظة ، أشعلها قائلا :

ـ ولم تجد مكانًا أفضل من هنا يا ولدى ؟!

ابتسم يوسف مجيبًا :

ـ لقد كنت أزمع الوحدة والهدوء ..

بادله العجوز الابتسامة ، قائلاً :

ـ ستحصل عليهما هنا بالتأكيد ..

عاد (يوسف) يهز رأسه متفهمًا ، قبل أن يسأله بغتة :

ـ منذ متى وأنت هنا ؟

سعل العجوز لافظًا المزيد من الدخان ، ثم أجاب :

ـ لست أذكر بالضبط .. عندما تبلغ عمرى لن يشكل هذا فارقًا ..

ومال إلى الأمام قليلاً ، متسائلاً بتخابث :

ـ لماذا ؟!

ـ كنت أتساءل عن هذه القبور الستة .. لست أدرى .. لكن ألاتبدو لك غريبة نوعا ما ؟

نفث العجوز دفقة أخيرة من الدخان ، قبل أن يلقى باللفافة أرضا متسائلاً :

ـ أى قبور ستة ؟! المكان مكتظ بالقبور ..

أشار يوسف إلى ما خلف ظهره ، قائلاً ...

ـ تلك التى تشكل دائرة ..

منحه العجوز نظرة طويلة متفحصة ، ثم قال :

ـ لست أدرى عن ماذا تتحدث يا بنى .. فلا توجد أمامى قبور ستة أو دائرة ..

عقد يوسف حاجبيه باستغراب ، قائلاً :

ـ ماذا ؟!!

والتفت بجذعه مشيرًا إلى .. إلى .. أين ذهبت القبور ؟!!!!

تسمر إصبعه المشير إلى الأرض الجرداء الخالية تمامًا وهتف بذهول :

ـ لقد كانت هناك ..

وهب واقفًا ، غير مصدق لما أمامه ، مرددًا :

ـ أقسم أنها كانت هناك ..

ربت العجوز على كتفه ، قائلاً من بين سعاله :

ـ يبدو إنك لم تنم جيدًا يا بنى .. سأتركك الآن ، فالوقت تأخر على عجوز مثلى ..

ثم تركه وسط ذهوله ..

لكن كيف ؟! القبور كانت هناك !! هورآها بأم عينيه ؟!!

لا .. ..لا ... لابد أنه يهذى .. القبور لا تختفى فجأة .. كل هذا كان هذيانًا و ...

إنه ليس هذيانًا .. إنها الفكرة ..

لقد خرج ليبحث عن فكرة ، وها هى تتقافز أمامه .. وهذه المرة أمسك بخيط الدخان وما عليه إلا أن ينسج به قصته ..

قصة رعب على ما يبدو ...

كل ما عليه الآن هو العودة .. إعداد قدح «كاكاو» آخر ثم السباحة بين الأوراق ..

وبخطوات سريعة ، اجتاز القبور عائدًا إلى غرفته ، ليدخلها بلهفة ، قبل أن يقف هاتفًا بسخط :

ـ اللعنة ..

لقد نسى النافذة مفتوحة ، فأطار الهواء أوراقه فى أنحاء الغرفة ..

وبضيق بالغ أغلق النافذة ، ثم انحنى ليجمع الأوراق ، ولكنه توقف بغتة ليحدق فى إحدى الأوراق التى كتبت عليها بضعة سطور باللغة الإنجليزية ..

مهلاً .. إنه لم يكتب شيئًا قبل أن يترك الغرفة .. فمن كتبها إذن ؟!!!

وبحذر مد يده ليلتقط الورقة ثم أخذ يقرأ ما فيها ببطء ..

ثم ترك الورقة تسقط من يده ذاهلاً !! هذه المرة ، إنه لايهذى .. بالتأكيد لا يهذى !

لقد خالفت القوانين .. عليك أن تعلن نفسك عضوا ميتًا فى الليلة التاسعة ..

هذا ما كان مكتوبا فى الورقة ...!!

★ ★ ★

الليلة الثانية

أحداث أخرى ..

فى اليوم التالى استيقظ ، جلس على فراشه ، ثم أشعل سيجارة من العلبة التى ابتاعها ليلة أمس .. وأخذ يحدق فى الورقة ..

لقد خالفت القوانين .. عليك أن تعلن نفسك عضوا ميتًا فى الليلة التاسعة ..

الحروف الإنجليزية العتيقة بأطراف مثنية ، مائلة ، والتى تبدو كأنما رسمت لا كتبت ..

والآن .. من رسمها فى غيابه ؟! وما الذى يعنيه بالضبط ؟!!

استنشق المزيد من الدخان فى صدره ، وواصل .. هل هى مزحة ؟! لا ... لا تبدو كذلك .. أوعلى الأقل ، الأمر أسخف من أن يكون مزحة ..

وأعجب من أن يكون جديًا ! لهذا فهو يصلح .. يصلح لاستخدامه فى روايته ...

سيكتب قصة عن شاب ، يعيش وحيدًا فى المقابر ، ليكتب رواية ، فيصطدم بالقبور الستة ، وتلك الرسالة المجهولة ..

سيكتب ما يحدث له ..

وإذ عادت فورة الحماس تجتاح عروقه ، هب من على فراشه ، والتقط أوراقه وقلمه وبدأ يكتب .. ويكتب .. ويكتب !

وبعد أربع ساعات متواصلة ، أمسك الأوراق التى تشبعت بالكلمات ، وأخذ يرتعش ...

لقد كتب ! أمسك قلمه مجددًا وكتب !!

الآن عليه أن ينتظر .. فما سيحدث له فى عالم الواقع هو ما سيحدث له فى عالم الرواية التى يكتبها .. أما الآن ، فهو يستحق إن يكافئ نفسه بغذاء شهى ، وكوب كبير من الكاكاو .. ثم يكتب هذا ضمن احداث الرواية !

أى شىء سيفعله أو يحدث له سيكون ضمن أحداث الرواية ! وابتسم لنفسه مغمغمًا :

لأتصرف إذن كما يليق ببطل روايتى أن يتصرف .. ثم أشعل سيجارة أخرى ، وخرج من غرفته ، ليتنسم الهواء المعبق برائحة شواهد القبور ..

ورآها ..

كانت هناك .. بالقرب من غرفته ، تهم بركوب سيارتها التى اشتركت مع ثوبها فى اللون الأسود ، وعلى عينيها منظار داكن يخفى ملامحها .. وقد تكفلت خصلات شعرها بإخفاء النصف الآخر ..

كانت تهم بركوب سيارتها عندما رفعت رأسها بغتة ونظرت إليه !!

ثم تقدمت نحوه !!

أما هو فتسمر فى مكانه مأخوذا ، حتى أصبحت أمامه مباشرة لتقول بإنجليزية صميمة :

ـ لقد جاءوا من أجلك ..

وقبل أن يستوعب عبارتها ، كانت قد عادت إلى سيارتها لتنطلق بها مخلفة عاصفة من الغبار ..

وفى ذهنه بدأت أفكار عديدة تتولد ..

إنها إنجليزية .. لغتها ذات الوطء الثقيل تقول هذا ...

إنها تعرفه .. لقد تحدثت اليه وكأنها تعرفه حق المعرفة ...

لقد جاءوا من أجله .. هى قالت هذا !!

من هى ؟ ومن هم ؟!!!

و ... مهلا .. أتراها هى التى كتبت تلك الورقة ؟!

« صباح الخير يا أستاذ (يوسف) ... »

أدار عينين شاردتين الى مصدر الصوت ، ليجد ذلك العجوز ، ذا الجلباب القذر ، الذى أجر له الغرفة ، يفرك كفيه ، مبتسمًا فى لزوجة ..

وبشرود امتزج ببعض الضيق ، أجابه :

ـ صباح الخير ..

ثم لم يتمالك نفسه أن يسأله :

ـ من هذه السيدة ؟!

بدا العجوز وكأنما ينتظر أن يسأله هذا السؤال ، إذ انطلق :

ـ إنها أجنبية .. جاءت هذا الصباح لتشرف على دفن ستة من بلدتها ، فى قطعة الأرض المجاورة .. ويبدو أنها غنية بحق .. لقد دفعت بسخاء ، ووضعت للقبور شواهد رخامية أنيقة .. لم أر مثلها من قبل .. بل والأغرب من هذا ، لقد وضعت القبور ، فى شكل دائرة ..

دائرة !!!

رنت الكلمة فى أذنه بعنف ، جعلته ينتفض بذهول .. ثم اندفع يعدو عبر شواهد القبور ، على نحو أدهش العجوز ، وجعله يضرب كفا بكف مغمغمًا :

ـ هل جن ، أم ماذا ؟! !

أما هو ، فقد أخذ يعدو لاهثا بين شواهد القبور وفى ذهنه فكرة .. بل أمنية واحدة .. ألا يكون ما يظنه حقيقيًا ولكنه إذ وصل ، كانت الكلمة الوحيدة ، التى استطاع أن ينتزعها من بين لهاثه هى :

- مستحيل !!

فأمامه تراصت القبور الستة فى دائرة كاملة ، تمامًا كما رآها ليلة أمس !!

لساعات طويلة ، لم يستطع (يوسف) سوى أن يدخن ...

وفى ذهنه عربدت الأفكار والتساؤلات والخيالات ، لتصيبه بصداع تكاد خلايا عقله تذوب معه ..

ثمة شىء ما خطأ فيما يحدث .. ما هو بالضبط ؟!!

تصاعدت طرقات على باب غرفته ، فهتف من مكانه :

من ؟!!

أتاه صوت حارس المقابر العجوز ، مفعمًا بالود :

- إنه أنا يا ولدى ..

شعر ببعض الارتياح لمجيئه ، فقام يفتح له محاولا رسم ابتسامة ترحيب على شفتيه :

- أهلاً بك يا والدى ..

نظر إليه العجوز بعينين لا تطرفان ، ثم قال :

- ما بك يا ولدى ؟!

أراد (يوسف) أن يمنحه إجابة باترة ، يريحه بها ، إلا أنه وجد نفسه يحكى له على كل شىء ...

القبور .. الورقة .. السيدة الأجنبية .. الدائرة ... الرواية ..

وما إن أتم حتى ابتسم الحارس العجوز ، قائلاً :

- ولم تشغل ذهنك فى هذا ؟! ليكن الأمر ما يكون طالما لا يضرك ..

كيف ؟! !

- يا ولدى .. الحياة أعقد من أن نقف عند كل مشكلة فيها .. ثم إنك تقول إنك تكتب ما يحدث لك فى روايتك .. أى أن الأمر قد عاد عليك بفائدة رغم كل شىء .. أليس كذلك ؟؟

أطرق (يوسف) لحظة ، ثم قال :

- السيدة الأجنبية كانت تحاول إخبارى رسالة ما .. رسالة تتعلق بما وجدته فى الورقة .. ثمة شىء على فعله لا أفهمه ..

أجابه الحارس ببساطة :

- لا بأس .. حتى تتبين لك حقيقة الأمر ، واصل حياتك كأن لاشىء هنالك ...

ثم نهض ، ليردف :

دعنا نتمشى قليلاً فى الخارج .. سيريح هذا أعصابك ..

هز (يوسف) رأسه موافقا، وانطلق معه إلى الخارج، وهو يقلب ما قاله الحارس العجوز له، فى رأسه ..

لم لا؟ ليترك الأمر يمضى حتى يفهمه ...

ثم إنها أحداث أخرى تضاف الى روايته ..

وعلى شاهد أحد القبور، استقر بهما المقام، فأخرج العجوز سيجارة غليظة من جيبه أشعلها، وقد أخذ يرمق القمر فى سكينة ...

وبفضول سأله (يوسف) :

- لم أعرف اسمك بعد؟

- اسمى (فهمى محمد) ...

وأنا (يوسف يحيى) ...

تشرفنا

قالها ولاذ بالصمت مجددا، فرفع (يوسف) عينيه إلى القمر هو الآخر ليسبح فى بحر ذكرياته ..

تذكر طفولته، وحيدًا بلا إخوة .. ثم يتيما بلا أبوين بعد أن مات والده فى حادث على الطريق .. تذكر جارته الحسناء، ورسائل المراهقة التى كان يلقيها على نافذتها .. تذكر يوم رحلت مع أسرتها لتزيد وحدته، وحدة .. بعدها لم يبق له سوى القراءة .. والكتابة ..

عوالم حالمة يسبح فيها، ليضع بعدها عوالمه هو على الورق .. الكتابة تمنحه سحرا ما بعده سحر ...

سحر أن يكون المسيطر ..

أن يملأ عالمه الوحيد بأبطال قصصه، ثم يسيرهم كما يشاء ..

« ما هذا ؟! .. »

قالها العجوز بغتة وهو ينهض من على شاهد القبر، فحدق (يوسف) فيه لحظة شاردًا، ثم انتبه لقوله ليتساءل :

- ما الذى حدث ؟!

- أعتقد أننى رأيت شيئًا ما ..

ثم اتجه إلى دائرة القبور، وقد بدا عليه الاستغراب، فتتبعه (يوسف) حتى بلغا منتصف دائرة القبور ...

وهناك رأى (يوسف) ما جذب انتباه الحارس العجوز .. رأى جثة ذلك الكلب الضخم التى رقدت أمامهما بلا حراك !

وببطء مال الحارس العجوز على الجثة ليتحسسها، قائلا :

- إنه بارد .. لقد مات منذ زمن ..

لم يجبه (يوسف) بحرف ... بل أخذ يحدق فى جثة الكلب برهة، ثم انتقل بعينيه إلى شواهد القبور من حوله ..

ورغمًا عنه تسلل إليه شعور عجيب .. شعور بأنه محاصر !!

أما العجوز فهب واقفًا ببساطة ، ليقول :

ـ لأدفنه قبل أن تفوح رائحته .. ساعدنى ولا تخف ... لن يؤذك .. فائدة الميت الوحيدة ، أنه لم يعد قادرا على الإيذاء مجددًا ..

ولم يدر (يوسف) لماذا وجد نفسه يجيب :

ـ أرجو هذا ..

بل ولم يدر سر تلك القشعريرة الباردة التى كانت تغزو جسده بقسوة !!

عندما عاد إلى غرفته ، بعد منتصف الليل ، لم يكن قادرًا سوى على النوم لذا أبدل ملابسه ، وأطفأ المصباح .. ثم ألقى بجسده على الفراش ..

كل ما كان يريد الظفر به هوالنوم العميق .. لكنه لم يظفر به !!

شىء ما جعله يستيقظ قبيل الفجر ... صوت خطوات !!!

فتح عينيه ببطء مرهق شاعراً أنه لا يزال يحلم .. ورغم الظلام الدامس شعر بوجود شىء ما يتحرك ..

وعيه يعود إليه بالتدريج .. الآن يدرك أنه ليس شيئًا .. إنه شخص ...!

عيناه تتكيفان على الظلام .. إنه شخص ما يقف فى الظلام أمامه مباشرة !

يسترد وعيه كليًا .. هذا الشخص يحمل سكينًا ، يلتمع نصله فى ضوء القمر ـ بكلتا يديه ، ويهم بغرزه فى قلبه ..

ومدركًا لهذا كله تصلب جسده فى رعب مطلق ... كانت لحظة من اللحظات التى تعجز فيها غريزة البقاء ، عن اتخاذ رد فعل إيجابى ..

لكنه على ضوء القمر الشاحب رأى النصل يرتجف فى يد صاحبه .. ثم خرج من حامله صوت مألوف .. صوت أنثوى يتحدث بالإنجليزية ، وقال بلهجة مرتعشة :

ـ أنت .. أنت .. لقد دمرت حياتى ...!

إنها السيدة التى رآها صباحًا .. ويبدو أنها جنت .

وبغتة هوت بالسكين فأغمض عينيه ، وقد فقد القدرة على التنفس ثم .. المعدن البارد يسقط على صدره ، ثم صوت خطوات مسرعة إلى الخارج ...

وعندما فتح عينيه .. كانت غشاوة رقيقة من الدموع على عينيه .. دموع الانفعال ..

إنه حى .. حى .. حى .. لم تقتله !!

تلك الحقيرة !!!

وإذ تحول انفعاله الى ثورة هائلة ، أمسك بالسكين ، وانطلق يعدو الى الخارج مطلقًا صرخات غضب مجنونة ..

لكن صوت السيارة المبتعدة أتاه من بعيد ، فوقف يلهث وجسده كله يرتجف ...

لقد هربت .. القاتلة المجنونة هربت ..

وململمًا أشلاء أعصابه ، استدار ليعود إلى غرفته وقد فقد قدرته على النوم ..

دخل أضاء المصباح و ... واتسعت عيناه فى ذهول ، تحدقان فى الهول الذى حدث ...

فهذه المرة ، كانت الصدمة أكثر قسوة من أن يحتملها !

★ ★ ★

الليلة الثالثة

فتّش عن المرأة ..

أشعل يوسف سيجارة ثم أخذ ينفث الدخان فى سماء الغرفة ..

حسنًا .. ليرتب أوراقه .. الساعة الآن الخامسة صباحًا ، ولن ينام على كل حال .. لذا لنبدأ ، فالموقف كالتالى ..

لقد انتقل للإقامة فى تلك الغرفة جوار المقابر ليتفرغ للكتابة ، لكن كل شىء حوله اجتمع على منعه من تحقيق مبتغاه ..

أولاً رأى تلك القبور الستة قبل أن توضع فى مكانها ، ثم رآها فى اليوم التالى ؛ إذ وضعت على شكل دائرة مكتملة ..

ثم جاءت تلك الرسالة الإنجليزية التى تطلب منه أن يعلن نفسه عضوًا ميتًا فى الليلة التاسعة ..

بعد هذا يأتى دور السيدة الإنجليزية التى كادت تقتله فى فراشه ، وهى تردد بهستيريا أنه دمر حياتها !!

وأخيرًا .. وأخيرًا كل ما كتبه فى تلك الرواية التى استوحاها من الأحداث الدائرة من حوله .. ست أوسبع صفحات ، ترقد أمامه الآن ناصعة البياض ، كأنما لم يمسها قلم !

أما ما كتبه فهو أمامه الآن .. مكتوب على الحائط .. كله على الحائط !!

أحدهم نقل كل ما على الورق إلى الحائط بمعجزة ما .. والأدهى أنه نقله بخطه هو ..

بل ولم يكتف بهذا ، بل كتب المزيد .. فبالى جوار سطوره ، تراصت سطور أخرى بالإنجليزية ، وبذات الخط المائل المرسوم ، الذى كان يقول هذه المرة :

« ورأى يوسف كلماته وقد خطت على الحائط ، فلم ينم ليلتها ، بل أخذ يدخن ويفكر .. يفكر فى حل لهذا كله .. حل منطقى للامنطقية الدائرة من حوله ، وفى اليوم التالى انطلق ليبحث عن السيدة الإنجليزية .. »

ومطفئا سيجارته ، غمغم (يوسف) ساخرًا :

ـ رغم أن أسلوبه ردىء ، إلا أنه يساعدنى حقًا فى كتابة الرواية ..

ومع أول أسهم من أشعة الشمس اخترقت زجاج نافذته ، معلنة عن مولد الفجر ، ألقى (يوسف) بجسده المكدود على الفراش ، مزمعًا النوم ..

لكنه كان يرتجف .. وبشدة ..

فهو يعرف .. بل يدرك أنه ما إن يستيقظ حتى سينطلق يبحث عنها ..

عن السيدة الإنجليزية ..

* * *

« تنام كثيرًا يا سيد (يوسف) .. »

قالها العجوز الذى أجّر له الغرفة ، إذ استيقظ عصرًا ، فأجابه بصبر نافد :

ـ كنت مستيقظًا طيلة الليل ..

ـ لماذا ؟!

ـ كنت أفكر فى خطة لخنقك ..

ـ ماذا ؟!!

ـ لا عليك .. أريد أن أسألك عن شىء ما .. عن تلك السيدة الإنجليزية التى جاءت أمس ..

فرك العجوز كفيه ، ليقول متخابثًا :

ـ ماذا عنها ؟

ـ ما اسمها وكيف أجدها ؟!

هرش العجوز رأسه مفكرًا ، وقال :

ـ لا أتذكر اسمها بالطبع .. لقد كان اسمًا غريبًا يصعب نطقه ، لكنى سمعتها تتحدث بعربية ركيكة للغاية عن فندق ما .. لا أتذكره .. آسف .. لكن لماذا تسأل على كل حال ؟

فكّر (يوسف) لحظة فى أن يقص عليه أحداث الليلة الماضية ، لكنه أحجم عن هذا ، ليقول :

ـ حاج (سيد) .. أريد أن أحدثك على انفراد ..

لم يكن هناك أحد بالجوار ، لكن (يوسف) وضع ذراعه على كتف العجوز ، وتنحى به جانبًا ، ليهمس له فى خطورة :

ـ حاج (سيد) .. إننى أراقب هذه السيدة ، لكن يجب أن يبقى كل ما سأقوله لك بيننا فحسب ..

استبد الخوف بالعجوز ، فهتف :

ـ هل أنت مباحث ؟!!

ـ نعم .. والآن اخفض صوتك وأصغ لى جيدًا .. نحن نعتقد أنه ثمة شىء ما فى التوابيت التى دفنتها تلك السيدة .. مخدرات فى الواقع ، لكن يجب أن يبقى كل ما سأقوله سرًا لا يخرج من أحدنا مهما كان السبب .. ونحن الآن فى حاجة لمساعدتك ..

ـ كيف ؟!

ـ أخبرنى كيف أجد هذه السيدة ؟

أجاب العجوز ببساطة :

ـ عن طريق العربة التى نقلت التوابيت .. لقد كانت مؤجرة من شركة (...)

حدّق (يوسف) فى العجوز مأخوذًا ، متسائلاً كيف استطاع هذا الوغد حلّ مشكلته بهذه البساطة !!

ليتمالك نفسه الآن ، فهو رجل مباحث لا يفترض به أن يندهش ؛ لذا قال بصرامة متوترة :

ـ عظيم .. لتبقى كل ما قلناه الآن سرًا بيننا ..

وتركه ومضى فى خطوات سريعة ، والهواجس تمزق تفكيره .. لقد عرف كيف سيجدها ، ولكن ..

ما الذى سيفعله معها ؟!!

ما علاقتها بكل ما حدث أصلاً ؟!!

ثم .. مهلاً .. لماذا لا يكون ما قاله للعجوز صحيحًا ؟!!

عصابة دولية تهرب المخدرات فى توابيت وتريد استخراجها .. ومشكلتهم تتمثل فى شاب مصرى وحيد يقطن المقابر ، قد يكشف خطتهم ..

ما الحل إذن ؟! تخيفه .. تخيفه حتى يترك كل هذا ويهرب ..

لِمَ لا ؟!!

لا .. لا .. ماذا عن القبور ؟! .. الرسالة ؟! .. خطه على الحائط ؟! .. إنه يريد أن يفهم .. حل منطقى للامنطقية !!

حل ربما يعثر عليه عند السيدة الإنجليزية ..

* * *

وبعد عدة ساعات كان (يوسف) يخرج من مكتب الشركة ، قابضًا على وردة بين أنامله ..

اسمها (إليزابيث كافنديش) .. بريطانية .. تقيم حاليًا فى فندق من فنادق الدرجة الثانية فى قلب العاصمة .. ها قد عرف كيف يصل إليها ، وبقى أن يعرف ما الذى سيفعله معها ..

وفى الأغلب لن يحدث هذا إلا حين تصير أمامه .. عندئذ سيعرف .. سيفهم ..

وسينتهى هذا كله ..

أو سيبدأ !!

* * *

الساعة الآن التاسعة والنصف مساءً .. والمشهد كالتالى ..

(يوسف) يقف منتظرًا ، مختبئًا خلف أحد السيارات فى ركن الشارع المظلم قرب مدخل الفندق .. توشك سجائره على النفاد ، وقبضة الجوع تعصر معدته بعد يوم كامل لم يتناول فيه شيئًا ..

لقد دخل الفندق وسأل عنها ، ليعرف أنها خرجت منذ الصباح ولم تعد بعد ..

لكنها تركت حقيبتها فى الغرفة ، وهذا يعنى أنها لم تسافر عائدة إلى بلدها .. وهذا يعنى أنها ستعود إلى هنا إن عاجلاً أو آجلاً ..

عظيم .. لكن متى ستأتى ؟!! .. إن الانتظار الممض هذا يحرقه ببطء !

وأخذت الساعات تمر عليه كالقرون ..

وبعد أن نفدت سجائره وصبره وقدرته على التحمل ، وقفت تلك السيارة السوداء أمام الفندق ، بصرير ينمّ عن قيادة خرقاء ، ثم خرجت هى من السيارة ، تكاد تسقط لفرط ما أسرفت فى الشراب .. إنها لمعجزة أنها نجحت فى القيادة إلى هذا الحد ..

راقبها (يوسف) وهى تترنح داخلة الفندق ، ثم قرر ما سيفعله .. سينتظر حتى تصعد ، ثم سيتسلل خلفها إلى غرفتها حيث لن تقاومه فى حالتها هذه ..

المهم أن يستطيع أن يخرج منها كلمة واحدة وهى فى هذه الحالة !

والآن حان وقت الانطلاق ..

اجتاز المدخل .. متجهًا إليها !

بلغ السلالم .. متجهًا إليها !

اجتاز الممر .. متجهًا إليها !

ثم وقف أخيرًا أمام باب غرفتها يرتجف انفعالاً .. مدّ يده على الباب ليطرقه ، فتحققت أسوأ كوابيسه ..

الباب مفتوح !!

هل يدخل ؟! لا مفر .. لذا دفع الباب بيده ودخل ..

وبدأ المشهد الذى يراه يتشكل فى مخه ببطء مخيف ..

غرفة صغيرة .. منضدة .. مقعدان .. سرير فى منتصف الحجرة .. هى ممدة على السرير .. مذبوحة .. الدماء تنزف من جرحها باطراد .. السكين فى يدها .. لقد ذبحت نفسها .. الدماء تتجمع على الفراش .. عيناها الجاحظتان ترمقانه بنظرة اتهام مريرة .. وثمة ورقة على المنضدة مكتوب عليها بخط هستيرى ردىء : (أنت دمرت حياتى) ..

وعلى الحائط .. وبالدماء .. كتب :

« لقد خالفت القواعد وعليك أن تعلن نفسك عضوًا ميتًا فى الليلة التاسعة »

!!!!!!!؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!!

الآن تكتمل الصورة فى ذهن (يوسف) ..

والآن يسقط مغشيًا عليه عند باب الغرفة !!

★ ★ ★

الليلة السابعة

فقدنا ثلاث ليالى !!

استجمع كل إرادته وقوته ليزيح تلك الغمامة السوداء من على عينيه ، فاكتشف أنها جفناه ..

رفعهما لحظة ، فآلم الضوء الساطع عينيه ، فأغلقهما مجددًا فى ألم ثم عاد يفتح عينيه على اتساعهما .. طالعه وجه ذلك الكهل المبتسم ، الذى خرج صوته ليرن فى أذنيه :

- لقد استيقظت مجددًا .. سأعطيك المهدئ ..

وشعر (يوسف) بوخز الإبرة فى ذراعه ، ثم بالمهدئ يسرى فى عروقه ..

ما الذى حدث ؟!

قرأ الكهل تساؤله فى عينيه ، فأجاب :

- أنت فى المستشفى .. لقد ظللت ثلاث ليال تحت تأثير المخدر ؛ لذا ستشعر بنوع من العجز عن التفكير ، وإن كنت تسمع ما أقوله الآن ، استرخ تمامًا ، وسأعود إليك ..

وارتفع وجه الكهل ، ثم غاب عن مجال إبصاره .. وفى ذهن (يوسف) بدت الكلمات كالبخار ، تولد وتتلاشى بأسرع مما يستوعبها ..

المستشفى .. المعاطف البيضاء .. طلاء الجدران هذا .. إنه يذكر هذا المكان ..

لكنه لا يذكر وجه الكهل .. ثم .. ثم .. ثلاث ليال تحت تأثير المخدر !!

هل مازال تحت تأثيره ؟!

كل ما يذكره هو دماء .. دماء كثيرة .. امرأة مذبوحة ..

(إليزابيث كافنديش) .. دمااااااءءء !!

وتحول بخار الأفكار فى رأسه إلى عاصفة عاتية ..

ما الذى جاء به إلى هنا ؟!! .. ما الذى حدث ؟!

لقد كان يقف عند باب غرفتها ، حين فقد الوعى ، لكن عن أى ثلاث ليال تحدث هذا الرجل ؟! .. هل ظلَّ مغشيًا عليه لثلاث ليال كاملة ؟؟!!

كيف ؟!!

المنوّم .. لقد خدروه لأنه كان ..

« هل استرددت وعيك ؟! »

أدار رأسه ببطء فطالعه وجه الكهل مجددًا ، وقد جلس جوار فراشه ، ليقول :

ـ والآن أصغ لى جيدًا يا أستاذ (يوسف) .. لقد عرفت اسمك من البطاقة ..

ـ ما .. الذى .. حدث .. لى ؟!!

ـ لقد عثروا عليك فى غرفة فندق ومعك جثة سائحة إنجليزية مذبوحة .. ولقد أصبت أنت بحالة هياج عصبى ما إن استيقظت اضطررنا معها إلى تخديرك طيلة هذا الوقت .. والآن الشرطة تريد استجوابك ، لكنك لست مضطرًا إن لم تكن مستعدًا بعد ..

ازدادت عاصفة الأفكار فى رأسه هياجًا .. استجواب ..

ما الذى سيفعله ؟!

« هل أصبح جاهزًا ؟! »

اقتحم الصوت البارد القاسى أفكاره ، فأدار عينيه إلى ذلك الضابط الشاب الذى وقف عند باب الغرفة يحدقه بنظرة اتهام ..

ـ بإمكانك أن تحاول معه ، لكن لا ترهقه كثيرًا ..

قالها الطبيب الكهل ، ثم غادر الغرفة ليتركهما سويًا .. أما الضابط ، فلقد اقترب من فراش (يوسف) مسددًا إليه نظرات اتهام لا تعرف الرحمة ، وقال :

ـ (يوسف) .. ما الذى كنت تفعله فى غرفة القتيلة ؟!

ـ لا .. لا أذكر ..

قالها وأشاح بعينيه بعيدًا عن سهام الاتهام الموجهة .. إنه لن يصدقه لو أخبره بالحقيقة ، لو كان يملك حقيقة ليقولها ، لذا فليمض فى تمثيلية فقدان الذاكرة هذه ..

عاد الصوت البارد القاسى ، الذى يشعره بالذنب لسبب لايفهمه ، يقول :

ـ ماذا تعنى (بلا أذكر) هذه ؟!! .. لقد كنت هناك ..

ـ هناك ؟! أين ؟!

ـ فى غرفة القتيلة .. (إليزابيث كافنديش) ..

ـ أى قتيلة ؟! أنا لم أقتل أحدًا !

ـ أعرف أنك لم تقتلها .. لقد انتحرت .. لكننا وجدناك عند باب غرفتها ، فما الذى أتى بك إلى هناك ؟!

ـ لا أذكر ..

بدا الضابط وكأنما سينقض عليه لينتزع حنجرته ، إلا أنه جذب نفسًا عميقًا أخرجه فى صوت هادئ ، يقول :

ـ حسن إذن .. سننتظر أن تمر علينا يا سيد (يوسف) ما إن تخرج من هنا ، وسأترك أحد الجنود أمام باب غرفتك لأتأكد أنك لن تنسى ..

ودون أن ينتظر رده غادر الغرفة بخطوات مسرعة ..

أما (يوسف) فتجاهل هذا كله ، وأخذ يفكر فى المشكلة الأهم .. لقد أضاع ثلاث ليال ، وهذا يعنى أنه فى الليلة السابعة ، وأن الليلة التاسعة أوشكت دون أن يفهم أى شىء بعد ..

أمله الوحيد الآن يكمن فى معرفة من هم أصحاب القبور الستة .. يجب أن يعرف من هم ..

فقط لو استطاع أن يخرج من هنا .. أو بمعنى أدق ، لو هرب من هنا !

بصعوبة استعاد السيطرة على عضلاته ، ليهب من على الفراش ، متجهًا إلى الخزانة فى ركن الغرفة .. لابد أنهم يحتفظون بملاءات إضافيه هنا ..

هل ستبحث عنه الشرطة ؟! .. بالتأكيد ، لكنهم لن يعثروا عليه بسهولة ، وهو لا يبغى إلا أن يتركوه حتى الليلة التاسعة ..

بعدها ..

بعدها على الأغلب لن يصنع عثورهم عليه أى فارق !!

* * *

« صمويل لانجرهام » .. كامبريدج

« آلان ديرمو » .. كامبريدج

« توم فريمان » .. كامبريدج

« ستيفن كونتز » .. كامبريدج

« جوزيف ساندر » .. كامبريدج

« بيتر مورجان » .. كامبريدج

ووسط القبور الستة ، وقف (يوسف) محاولاً فهم ما يحدث ..

صحيح أن هروبه كان مرهقًا .. صحيح أن آثار المهدئ لم تتلاش بعد .. لكنه يريد أن يفهم ..

لماذا جاءت هذه القبور بعد مجيئه ؟!

لماذا يتلقى تلك الرسائل على جدران غرفته ؟!

لماذا كادت (إليزابيث كافنديش) أن تقتله ؟! ولماذا انتحرت بعدها ؟!!

كل ما يريده هو أن يفهم ..

« أستاذ (يوسف) .. إنه أنت .. »

ارتفع صوت الحاج (سيد) بهذه العبارة ، فأدار إليه عينين صامتتين ..

- أين كنت طيلة هذه الفترة ؟!.. لقد قلقت عليك ..

أراد أن يجيبه ، لكنه لم يستطع ، ليواصل العجوز :

- لقد اختفيت فجأة .. وسألت عنك ، لكن ..

انتزع (يوسف) الكلمات من حلقه ، ليقاطعه :

- أين حارس المقابر ؟!

- أى حارس ؟!!

- الرجل العجوز الذى يعيش هنا ..

التمعت الحيرة فى عينى الحاج (سيد) ، وهو يقول :

- لا عجوز هنا سواى .. عن أى رجل تتحدث ؟!

تسللت العصبية إلى نبرات (يوسف) :

- من يحرس هذه المقابر ؟!

- أنا ..

- ولا أحد سواك ؟!

- لا أحد ..

- اللعنة !!

ها هو لغز جديد يجد طريقه إلى حياته .. الرجل العجوز الذى كان يجلس معه طيلة الليل ، لا وجود له !

مرحى .. هذا هو ما كان ينقصه !

ـ أستاذ (يوسف) .. إنك تبدو مرهقًا للغاية ، و .. وما هذا الذى ترتديه ؟!

نقل (يوسف) عينيه بين رداء المستشفى ، ووجه الحاج (سيد) ، ثم قال :

ـ سأذهب إلى غرفتى ..

وتركه بخطوات متثاقلة ، وقد قرر أن يذهب هذا كله إلى الجحيم ، فهوالآن لا يريد سوى أن ينام ..

وعلى باب غرفته وقف .. فتح الباب ثم أضاء المصباح ..

وبعينين خاويتين أخذ يرمق الجدران ، التى أغرقتها السطور الإنجليزية ذات الخط المائل المرسوم ..

لقد فاته الكثير إذن .. لكن لا بأس .. سيترك هذا للغد ؛ لأنه الآن ..

سيناااام ..

* * *

الليلة الثامنة

السـبعة !

استيقظ (يوسف) فى اليوم التالى وقد زال أثر المخدر من أوصاله ، فنظر إلى جدران الغرفة نظرة سريعة ، ثم غمغم :

ـ لأستعد أولاً ..

ارتدى ملابسه ليغادر الغرفة ، ثم عاد بعد ساعة وهو يحمل إفطاره ، وعلى المشعل الصغير فى ركن الغرفة ، ترك المياه تغلى .. الجدران لن تطير على أية حال !

وما هى إلا دقائق حتى جلس على كرسى أمام الجدار ، ماسكًا بكوب شاى تتصاعد الأبخرة من على سطحه ، مشعلاً سيجارة ، ليبدأ فى القراءة ..

بدأ يقرأ قصة السبعة ..

* * *

الزمان .. عام ١٧٣٠

المكان .. (كامبريدج) .. ذلك المنزل العتيق ، ذو المدخل الضيق ، والسلالم الملتوية كأفعى ، وفى الأعلى غرفة ضيقة بها طاولة خشبية مستديرة حولها سبعة مقاعد ..

وعلى المقاعد تراص السبعة .. (بيتر مورجان) و (صمويل لانجرهام) و (آلان ديرمو) و (توم فريمان) و (ستيفن كونتيز) و (روبرت داونى) و (جوزيف ساندر) ..

فى ذلك الوقت فى كامبريدج ، كان شعار الشباب الأوحد ، هو تكوين الجمعيات .. جمعية محبى طوابع البريد .. جمعية كارهيها .. جمعية جامعى العملات .. جمعية اللامؤمنين بالعملات .. جمعية جامعى الملابس النسائية وحرقها فى احتفال مهيب !

أى جمعية .. المهم أن ينضم كل شاب إلى جمعية ، وأن تكون لهذه الجمعية قدسيتها التى لا تقل بالنسبة له عن قدسية الكنيسة ذاتها ..

لكن هؤلاء السبعة كانوا مختلفين .. وكانت جمعيتهم مختلفة أيضًا ..

كانت جمعية ذات قانونين لا ثالث لهما .. أولهما : ألا يزيد أو يقل عدد أعضاء الجمعية عن سبعة أيًا كان السبب .. أما الشرط الثانى فهوعدم التغيب عن اجتماعات الجمعية فى الثانى : من نوفمبر من كل عام مهما كان السبب .. حتى لوكان الموت ذاته هو السبب !

قد يبدو هذا غريبًا ، لكن الأغرب حدث عام ١٧٤٣ وقبل ميعاد الاجتماع بيومين فحسب ..

ففى ذلك اليوم مات (آلان ديرمو) فى مبارزة .. لكنه عملاً بقواعد الجمعية حضر الاجتماع فى ميعاده ، حيث قضوا الوقت فى الرقص والغناء ولعن كل المقدسات فى كل دين ، وفى نهاية الاجتماع أعلن (آلان ديرمو) نفسه عضوًا ميتًا !

وعن هذا تقول سجلاتهم التى تركوها ، ليعثر عليها فيما بعد المؤرخ (كيلى كوش) أن ستة أزواج من العيون الذاهلة حدقت فى (آلان ديرمو) .. شبحه على الأدق .. وإذا استطاع أحدهم النطق ، كان ما قاله هو :

ـ ولكن .. كيف ؟!

ـ لماذا كيف ؟!

ـ لأن هذا غير منطقى .. لأنك ميت !!

ـ أخبرونى عن أكثر الأشياء منطقية ، وسأجد لكم شيئًا غير منطقى فيها .. !!!

ومرت السنوات .. وتوالت الوفيات .. وازداد عدد الموتى حتى بلغ ستة !

ولابد أن الهلع قد استبد بالسابع ، الذى كتب يقول :

ـ لست أفهم ما الذى يحدث .. لم أعرف كيف بدأنا هذه الفكرة المجنونة ، ولا أعرف كيف ستنتهى .. إننى الوحيد الذى بقى حيًا ، ولقد عزمت على تدمير كل شىء قبل فوات الأوان ..

إلى هنا ينتهى دور السجلات ..

أما ما حدث بعد ذلك ، فلم تذكره السجلات ..

ففى الليلة التى كتب فيها السابع (روبرت داونى) أسطره هذه ، عاد إلى منزله وقلبه يخفق بعنف .. يجب أن ينتهى هذا كله .. يجب .. لكنه يدرك أنه لن ينتهى بسهولة ..

يدرك أن الستة معه طيلة الوقت .. لا ليس فى الاجتماعات فحسب .. بل فى كل وقت وكل مكان !!

يدرك أنه العضوالوحيد الحى ، وأن لهذا ثمنه !!

يدرك أنه خالف قواعد الجمعية .. أهم قوانين الجمعية .. ولقد عرفوا ..

والآن هو يدرك أنها ليلته الأخيرة ؛ لذا عليه أن يسرع ، وأن ينهى كل شىء كما بدأ ..

جلس على مكتبه ، وأخرج أوراقه ، ثم أخذ يخط رسالته الطويلة ..

وإذ انتهى كان يمسك برزمة الأوراق ويلهث .. ترى هل ستصدقه ؟!! هل سيصدقه أحد ؟!! نادى على الخادمة النحيلة الباردة ، فجاءته ، لتقول ببرود :

ـ نعم يا سيدى ..

ـ (هيلين) .. خذى هذه الأوراق وضعيها فى مظروف ، وأرسليها إلى يد الملكة (كارولين) شخصياً ..

ـ ماذا ؟!!

ـ نفِّذى يا (هيلين) .. لا وقت للجدال .. وثمة شىء آخر عليك القيام به ، لذا أصغ لى جيدًا ..

وألقى على مسامعها بكل ما لديه .. كانت وصيته الأخيرة !

ففى الصبح عثروا على جثته شاخصة العينين ، وكان الشىء الوحيد المؤكد فى موته ، هو أنه لم يكن طبيعيًا بالمرة .. لم يكن كذلك أبدًا ..

الآن يقف (يوسف) فى منتصف الغرفة يرتجف ..

الآن يعرف من هم الستة .. أصحاب القبور ..

لقد جاءوا من أجله .. استخدموا تلك السيدة (إليزابيث) لتنقل قبورهم إليه .. وهو لا يحتاج إلى تأكيد ليدرك أن الغد سيكون الثانى من نوفمبر ..

سيكون الليلة التاسعة ..

ولكن .. ما علاقته هو بهذا كله ؟! لا يزال لا يفهم !!

لكن عليه أن يتصرف وبسرعة .. عليه اتخاذ ردة فعل ما .. عليه أن ..

لكن الطرقات الهادرة انتزعته مما هو فيه ، ليهتف بانفعال :

ـ من ؟!

أتاه صوت الحاج (سيد) مفعمًا بالهلع :

ـ أستاذ (يوسف) .. افتح رجاءً ..

غمغم (يوسف) بضجر :

ـ ما الذى يريده هذه المرة ؟!

وفتح الباب ، ليجده يرتجف أمامه من فرط الانفعال ، فسأله :

ـ ماذا حدث ؟!

ـ أعتقد أنه يجب أن ترى بنفسك ..

ـ أرى ماذا ؟!

لم يجب العجوز هذه المرة ، بل أشار تجاه القبور التى بدت وكأنما تمتد بلا نهاية ..

رسالة واضحة تقول « اذهب إلى هناك .. إلى دائرة القبور » ..

رسالة استقبلها (يوسف) بصمت ، قبل أن يتجه بخطوات بطيئة إلى هناك ..

الليل يرسل نسماته الباردة ، وألوانه القاتمة ترسم السماء من جديد ..

الآن يقف أمام دائرة القبور السبعة .. سبعة ؟! مهلاً ، لقد كانوا ستة !!

بخطوات ذاهلة يخطو (يوسف) إلى قلب الدائرة ، وتدور عيناه فى استسلام قدرى على الشواهد ..

(بيتر مورجان) و(صمويل لانجرهام) و(آن ديرمو) و(توم فريمان) و(ستيفن كونتيز) و(جوزيف ساندر) .. ثم (يوسف يحيى) !!

قبر سابع انضم إلى الدائرة المخيفة ، يحمل اسمه هذه المرة ..

والآن يدرك (يوسف) من هو السابع !!

★ ★ ★

الليلة التاسعة

السابع !

دارت عينا ذلك الرجل فيما حوله فى بطء .. ثم شدّ قامته باعتداد ، كما يليق بعقيد شرطة فى مثل عمره ، قبل أن يتقدم إلى دائرة الأحداث ..

صفير سيارات الشرطة وأضوائها الزرقاء تنعكس على شواهد القبور ، تصبغ الموقف كله بطابع سينمائى محبب .. إن الأمر أشبه بفيلم ، وهو أشبه ببطله !

وحين يمتزج صوت الصافرات بحركة الرجال بأجهزة المعمل الجنائى ، فى أوركسترا نادرة تعزف لحن الجريمة .. يتقدم هو بشموخ لحل طلاسم الجريمة كالمعتاد ..

نادى بصلف متعمد على أحد الجنود ، فجاءه هذا مسرعًا ، ليسأله :

ـ ما الموقف حتى الآن ؟!

ـ لم نعثر على الجثث بعد .. لكننا عثرنا على هذه ..

وناوله رزمة من الأوراق تلقفها هو باستنكار ، فهتف :

ـ ما هذا ؟!

أتاه جندى آخر ، يهتف بلهفة :

ـ سيادة العقيد .. ثمة ما يجب أن تراه ..

ـ ماذا ؟!

ـ الغرفة .. الغرفة التى كان يقطنها ذلك الشاب .. يجب أن ترى بنفسك ..

اندفع العقيد بخطوات مسرعة إلى الغرفة ، ولم يكد يدخلها حتى هتف :

ـ ما هذا ؟!

ودارت عيناه فى الجدران التى غطتها الكتابة الإنجليزية المرسومة ، ليردف :

ـ أى عبث هذا ؟!

ثم أخذ يقلب فى الأوراق فى يده ، مغمغمًا :

ـ علّها تكون ذات فائدة ..

وجلس على الفراش ليبدأ فى قراءتها ..

ومع السطور بدأ يعرف ما الذى حدث ..

* * *

فى الليلة التاسعة ..

فى ذلك اليوم ، كان أمام (يوسف) الكثير ليفعله ..

إنه اليوم .. إنها الليلة التاسعة !

لماذا لا يهرب ؟! نعم يهرب .. يترك كل هذا الجنون ويرحل ..

الفرصة أمامه وستمر الليلة التاسعة كأى ليلة أخرى ، لكنه لن يكون هنا ..

لكنه الفضول .. الفضول الذى قتل ألف قط قبله !!

قد يرحل ، لكنه سيقضى عمره كله عاجزًا عن الفهم .. يمضى عمره كله يفكر ، ما الذى كان سيحدث لوظلّ ؟!

لذا سيبقى .. لذا سيفعل ما يفعله ..

من الواضح أنه السابع بصورة ما .. ومن الواضح أنه يجب أن يخضع لقوانينهم ويحضر الاجتماع ، وأن يعلن نفسه عضواً ميتاً .. لكن !!

لكنه يملك لهم مخططات أخرى !!

خرج فى ذلك اليوم قاصدًا مكانًا ما ، وعندما عاد كانت تلك اللفافة التى يخفى فيها المسدس ، ثقيلة فى يده ، تشعره بمزيج من الاطمئنان والرهبة .. إنه لم يستخدم مسدسًا من قبل ، لكن مجرد وجوده ، كفيل ليشعر بالأمان ..

فليأمل أنه لن يضطر لاستخدامه ، وإن كانت كل الظروف من حوله ، تؤكد أنه لن يكون ذا فائدة أصلاً ..

والآن ليكمل مجموعته ..

ذهب إلى غرفة الحاج (سيد) العجوز مؤجر الغرفة ، وطرق على بابه ليأتيه الصوت المنهك الخبيث :

ـ من ؟!

ـ أنا (يوسف) ..

صوت حركة .. اصطدام بشىء ما .. خطوات ، ثم يفتح الباب الخشبى ، ليطل العجوز من خلفه :

ـ أستاذ (يوسف) .. تفضل ..

ظل (يوسف) واقفًا مكانه ، وهو يسأل :

ـ هل أحضرت ما طلبته منك ؟

ـ نعم .. نعم .. لكن هل مازلت مصراً ؟!

ـ بالطبع ..

ـ لوكنت مكانك ، لاستدعيت أحدهم .. صدقنى .. لولا سنى لما تركتك بمفردك ..

ـ لا بأس سأذهب بمفردى وليكن ما يكون ..

منحه العجوز نظرة طويلة مشفقة ، ثم غاب فى غرفته ليعود حاملاً معولاً ، ناوله إياه قائلاً :

ـ هذا سيفى بالغرض ..

ـ عظيم .. تذكر ما أخبرتك به جيدًا ..

ـ سأفعل .. أعدك أننى سأفعل ..

ودون إضافة عاد (يوسف) إلى غرفته ، حاملاً المعول ..

الآن سينام ، وعند منتصف الليل تمامًا سيستيقظ .. و ... و ...

وسينزل إليهم !!!

* * *

عند دقات منتصف الليل ، خرج (يوسف) من غرفته الكابوسية حاملاً المعول والمسدس ..

ملأ صدره بأنسام الليل الباردة ، ثم اتجه إلى دائرة القبور ..

ترى .. هل يرتجف جسده من البرد أم من الخوف ؟!!!

بلغ القبور السبعة التى بدأت الأعشاب تزحف على شواهدها ، لتصنع أمامه لوحة قوطية مخيفة .. ذات اللوحة التى رآها فى أول ليلة ..

ولج بين الشواهد بصعوبة ، ثم وقف فى منتصف الدائرة محاولاً السيطرة على أعصابه ..

ثمة أصوات ما تنبعث من القبور !! أصوات همس !!

هل بدأ يهلوس ؟! لم يعد يدرى !

الآن ليبدأ ، فلم يعد يفصل بينه وبين الفهم سوى دقائق قليلة مهما طالت ..

رفع المعول بأقصى ارتفاع ، ثم هوى به جوار قبره ! لكم يبدو الأمر ساخرًا !

لكم يبدو الأمر رهيبًا !!

وبعد نصف ساعة كان قد انهار جوار القبر يلهث بعنف ، وقد أدرك عدم جدوى ما يفعله .. إنه لن يستطيع المواصلة هكذا ..

حاول زحزحة الواجهة الرخامية مستندًا بالمعول ، فبدا أن هذا الحل أكثر منطقية .. ها هى الواجهة تهتز وتـتـزأر .. وببطء شديد بدأت تتحرك ..

تتحرك .. بمزيد من الجهد .. تنزاح .. أكثر قليلاً .. ها هى ظلمات قبره تنكشف له ..

الآن يرى الحفرة الضخمة التى كانت تختفى أسفل الواجهة الرخامية ، لينهار جسده على حافتها ، ولينظر إليها وهو يغمغم :

ـ كان يجب أن أحضر حبلاً ..

لكن لا مجال للتراجع الآن .. لذا ألقى بالمعول فى ظلام الحفرة ، وبحركة يائسة ، ألقى بجسده خلف المعول ..

كان السقوط مؤلمًا ، لكن الارتفاع لم يكن كافيًا لتتهشم عظامه ، لذا وقف بصعوبة داخل الغرفة ، وتحسس طريقه حتى أمسك بالمعول مجددًا ، فواصل الحفر ، وظلام القبر من حوله يخنقه ..

رجل يحفر قبره ، علّه يحل الغموض الذى دمر حياته فى الليلة التاسعة ..

وحين اصطدم المعول بواجهة التابوت الخشبى أخيرًا ، ألقى بالمعول جانبًا ، ثم استنفر عضلاته المجهدة ، ليزيح الغطاء ، وفى أعماقه يتلوى سؤال عن كنه الذى سيجده أسفل هذا الغطاء ..

وإذ أزاحه جانبًا ، وقف يرمق ذلك النفق الطويل فى باطن الأرض ، الذى تبدى له على هذا الضوء الخافت ..

الضوء الخافت القادم من أعماق الأرض !!

وقف لحظة يصغى لأصوات الهمس ، ثم غمغم :

ـ لقد جننت .. أرجوك يا إلهى .. أرجو أن أكون قد جننت ..

وبعد لحظات من التردد ، ألقى بنفسه فى النفق ، وهذه المرة تدحرج جسده طويلاً ، قبل أن يصطدم بالأرض بعنف ، شعر معه وكأنما تهشمت كل عظامه ، لكنه تحامل على نفسه ليقف ، وهو يتساءل :

ـ وصلت .. لكن .. أين ؟!

وعلى الضوء الذى ازدادت حدته رأى الممر الممتد أمامه ، فاجتازه بخطوات حذرة ، ويده تقبض على مسدسه ، مسددًا إياه إلى أى كائن سيعترض طريقه ..

وفى نهاية الممر ، فغر فمه ذاهلاً ، يحدق فى المشهد أمامه ..

وأمامه كانت تلك القاعة ، التى احتوت على منضدة خشبية ، تراصت حولها سبع مقاعد ، وعلى سطحها رقد دفتر عتيق تراصت حوله الشموع .. دفتر من القرن الثامن عشر ..

تقدم مأخوذًا من هذا كله ، وجلس أمام المائدة .. هل تذكرون ؟!

حين جلس وأخرج أوراقه وقرر أن يكتب ما حدث ويحدث .. لقد كان هذا حين سمع الخطوات ..

التفت مذعورًا والمسدس يرتجف فى يده ، ليصغى بانتباه إلى صوت الخطوات القادمة .. خطوات أكثر من شخص يتجهون إليه ..

يا إلهى !! إن ما يراه الآن مستحيل !! مستحيل !!

فأمامه كان السبعة يدخلون إلى القاعة ، واحدًا تلو الآخر .. مهلاً .. السبعة !!

حدق ذاهلاً فى السابع الذى دخل بخطوات وئيدة ، ناظرًا فى عينيه مباشرة .. فى العجوز حارس المقابر الذى قابله فى الليلة الأولى ، وجلس معه ليتسامرا !!

خرجت الكلمة من فم (يوسف) كالفحيح :

ـ أنت ؟!

أتاه الصوت الأجش ، الذى لم يخل من الود بعد :

- نعم يا بنى .. أنا السابع ..

تهاوت يد (يوسف) التى تحمل المسدس جواره، وهو يهمس ذاهلاً :

- ولكن .. كيف ؟؟!

ظل العجوز صامتًا، فى حين جلس الستة حول المائدة، رامقين (يوسف) فى إصرار، ثم تحدث العجوز ليقول :

- القصة أعقد بكثير من أن أحكيها .. ولكن لم لا ؟! أصغ جيدًا ولا تقاطعنى إن كنت تبغى الفهم، وما أحسبك هنا إلا لأنك تريد أن تفهم .. بالتأكيد أنت تعرف الآن قصة السبعة ..

نطق أحد الستة الجالسين بإنجليزية عتيقة :

- بالتأكيد .. لقد كتبتها بنفسى على حائط غرفتك .. بالمناسبة .. أنا (آلان ديرمو) ..

واصل العجوز كأن أحدًا لم يقاطعه :

- السابع (روبرت داونى) كان أحد جدودى .. لا تندهش فأنت لا تعرف من هم جدودك بعد .. أنت تعرف أنه خالف التعليمات إذ تزوج وأنجب، وبهذا أخل بكوننا سبعة .. وقوانين الجميعة صارمة لا تقبل النقاش؛ لذا دفع الثمن فى الليلة التى أفشى فيها بسر الجمعية، إذ أرسل إلى الملكة (كارولين) .. فى هذه الليلة

أرسل ابنته مع الخادمة إلى مكان مجهول، فتوالى نسله وسافر وهاجر وانتهى الأمر بى أنا .. أنا حفيد السابع ..

سأله (يوسف) بتردد خائف :

- هل أنت .. ميت ؟!!

شقت الابتسامة طريقها فى ملامح العجوز، وهو يجيب :

- لا .. أنا حى .. لا بد أن يكون السابع حيًا ليضمن استمرار الستة الآخرين .. أظنك الآن تتساءل عن كيفية استمرارهم هم ..

كان (صمويل لانجرهام) هو من تحدث بالإنجليزية العتيقة، ليقول :

- تقصد أشباحنا .. لكن ألا تظن أنه لا داعى لأن يعرف ؟

أجاب العجوز ببساطة :

- لا فارق ..

ثم عاد يوجه كلامه إلى (يوسف) :

- المؤرخ الأحمق (كيلى كوش) ظن أنه فهم كل شىء عندما عثر على تلك السجلات فى المنزل القديم فى كامبريدج، لكنها لم تكن السجلات الحقيقية .. فالسجلات الحقيقية ترقد أمامك الآن على الطاولة .. أنا الذى استطعت العثور عليها وحفظها بعد كل هذه السنوات، وأنا الوحيد الذى عرف كيف كانوا يستمرون ..

انفجر (يوسف) بغتة :

ـ ما دخلى أنا بهذا كله ؟!

طقطق العجوز بلسانه ، وأجاب بلهجة عتاب أبوية :

ـ قلت لك لا تقاطعنى .. لقد كانوا يمارسون السحر الأسود .. كل اجتماعاتهم كانت لممارسة طقوس هذا الفن الغامض ، حتى بلغوا فيه درجات لم يبلغها أحد ، واكتشفوا أسرارًا لم يكن لأحد أن يعرفها .. من هذه الأسرار ، كانت طريقة الاستمرارية ، ولهذا كانوا يحتاجون إلى ضحية .. ضحية آدمية ..

وابتسم ابتسامة واسعة جعلته يسعل ، قبل أن يردف :

ـ وأنت ستكون ضحيتنا الآدمية .. لا تنكر أن كل ما حدث استدرجك إلى هنا بسهولة ..

شعر (يوسف) كأن طرقات مخيفة تهوى على رأسه ، وهو يدير عينيه ذاهلاً غير مصدق فى وجوه السبعة ، ليجاوبوه بسبع ابتسامات مقيتة ..

كل هذا كان عبثًا !!

كل هذا ليستدرجوه إلى هنا ؟!!

خرجت الكلمات من فمه زائغة :

ـ لـ .. لكن لماذا أنا بالذات ؟!

وانتبه إلى سؤاله فأردف :

ـ هل جئتم من (كامبريدج) خصيصًا من أجلى ؟!

أجاب العجوز ، ملوحًا بكفه فى الهواء :

ـ آه .. نسيت هذه النقطة .. (يوسف) هل تتبعت جدودك من قبل ؟!

ـ لا ..

ـ ألا تعرف أن لك أصولاً أجنبية ، وأن أحد جدودك هو السيد (مكارث ستيفنسون) ؟

ـ من هو (مكارث ستيفنسون) هذا ؟!!

ـ إنه السيد الذى قتل (آلان ديرمو) فى تلك المبارزة عام ١٧٤٣ .. وأنت الحفيد الوحيد له الذى لم يتزوج بعد .. أنت آخر النسل .. !!

* * *

الآن يتدلى فك (يوسف) ببلاهة ، بينما يقول العجوز :

ـ لا وقت لنضيعه .. آسف يا بنى ، لكننا سنضطر لقتلك ..

تراجع (يوسف) ثم لم يلبث أن انتبه إلى المسدس الذى يحمله ، فسدده إلى العجوز ، وهتف :

ـ هل نسيت أننى من يحمل المسدس هنا ؟!

انطلقت الضحكات من سبعة حلاقيم ، ثم قال (آلان ديرمو) :

ـ إنك لن تخرج من هنا على أية حال .. نحن انتظرنا مئات السنين ، ولن يضيرنا أن نضيف إليها الوقت اللازم لتخور قواك ..

وأضاف العجوز باسمًا :

ـ أما أنا فأستطيع الانتظار ..

هتف (يوسف) :

ـ ستخور قواك أنت أيضًا ..

مطّ العجوز شفتيه ، وقال :

ـ حينئذ سيتصرف هؤلاء السادة .. إن بقاءهم رهن بقائى ..

ـ أشكرك .. هذا ما كنت أود التأكد منه ..

والتمعت عينا (يوسف) بظفر ، وهو يردف :

ـ ها أنت قد قلتها .. إن بقاءهم رهن بقائك .. وأنت حى مثلى ، والمسدس سيعمل معك بكفاءة ..

توترت التجاعيد فى وجه العجوز ، وقال :

ـ هل ستقتلنى ؟!

ـ هل لدى خيار آخر ؟!!

نظر العجوز نظرة استغاثة إلى الأشباح الستة ، لكن (يوسف) قفز بعيدًا عن متناول أيديهم ، صائحًا :

ـ فليبق الكل فى مكانه ..

وفى ذهنه أخذت الأفكار تتواثب بأسرع من قدرته على الاستيعاب .. يجب أن يتصرف الآن .. لن يستطيع تسلق الحفرة ، ولن يتركوه يفعل لو حاول .. وهو لن يظل هكذا طويلا ..

لقد كان الحاج (سيد) على حق ، حين أخبره أن يحضر أحدهم معه !

الآن هو وحيد وسط مهرجان الأشباح هذا !!

ما الحل ؟!

قال العجوز كأنما قرأ أفكاره :

ـ لا مفر أمامك .. استسلم ..

صرخ (يوسف) بعصبية :

ـ قف مكانك ..

لكن العجوز واصل تقدمه :

ـ استسلم يا بنى .. استسلم ..

ـ قلت لك الزم مكانك ..

ـ استسلم .. استسلـ

وهمّ العجوز أن ينقض ، لكن رصاصة انطلقت من مسدس (يوسف) واخترقت صدره ، ألزمته مكانه وأخرسته إلى الأبد ..

وسقط العجوز على الفور والدماء تتفجر من صدره .. وبذهول لاهث أخذ (يوسف) يحدق فى الجثة أمامه ..

لقد قتله !!

وفى صمت حدقت الأشباح الست فى الجثة ، ثم نطق (آلان ديرمو) ليخرج صوته هادئ النبرات :

ـ عظيم ..

التفت إليه (يوسف) ذاهلاً ، فواصل (ديرمو) :

ـ لقد سار الأمر كما خططنا له .. شكرًا .. !!!

وابتسم (ديرمو) ليقول مفسرًا :

ـ ألم تفهم بعد ؟! لقد فعلت كل ما كنا نتريده .. أنت السابع لا هو .. لقد أوهمناه أنه السابع لنتخلص منه بعد أن اكتشف السجلات الحقيقية ، والآن لا يبقى أمامك سوى الانتحار

بعد أن دمرت حياتك .. عليك أن تعلن نفسك عضوًا ميتًا كما هى قوانين الجمعية ..

همس (يوسف) ذاهلاً وهو يشعر بأن الأرض تميد به :

ـ مستحيل !!!

ـ الآن ينتهى دورنا .. أنت آخر نسل السابع وأيًا كان ما ستقرره فالنهاية حتمية .. سننتظرك هناك .. فى الجانب الآخر ..

وسابحين فى الهواء هذه المرة ، غادرت الأشباح الستة المكان ، تاركين (يوسف) والجثة التى تنزف منها الدماء بلا توقف ..

وهمس (يوسف) مرة أخرى :

ـ مستحيل !!

إنه الآن قاتل .. قاتل وهارب من الشرطة ..

حياته دمرت نهائيًا وكل هذا لأنه حفيد السابع .. والآن أصبح بقاؤه هنا كخروجه ، لا يحملان له سوى الهلاك ..

إلا إذا ..

ونظر إلى المسدس فى يده بشرود ، مدركًا أنه لا خيار آخر أمامه ..

لا خيار على الإطلاق !!

* * *

انتهت الأوراق فى يد العقيد ، فغمغم فى ذهول مستغرب :

ـ ما هذا العبث ؟! لست أفهم شيئًا !!

ودخل أحد الجنود الغرفة ، ليقول برسمية :

ـ سيدى .. لقد عثرنا على جثتين فى أحد القبور المفتوحة .. أحدهما لعجوز تلقى رصاصة فى صدره ، والثانية لشاب يبدو أنه انتحر مطلقًا النار على رأسه ، ويبدو أنه من قتل العجوز ..

أدار له العقيد عينين شاردتين مصدومتين ، ثم قال :

ـ انتشلوا الجثتين .. لقد انتهت القضية قبل أن تبدأ .. القاتل انتحر ..

ـ ماذا عن الأوراق يا سيدى ؟!

ـ يبدو أن القاتل أصيب بالجنون ليكتب هذا كله .. إننا لم نجد قبوًا أسفل الأرض ولا شىء .. مجرد قبر مفتوح فيه جثتان .. إنه هارب من المستشفى على كل حال ولا يوجد تفسير آخر سوى جنونه ..

وبهدوء هب من مكانه ، ليردف بلهجة باترة :

ـ لقد أغلق ملف القضية ..

* * *

الآن نذهب إلى (فرنسا) .. إلى تلك الغرفة فى الفندق التى استيقظ فيها (جان مارسو) على كابوس عجيب(*) ..

كابوس عن سبعة قبور فى مصر ، يجب أن ينقل التوابيت منها إلى فرنسا ..

كابوس يطارده بضراوة ، كأنها مهمة عليه القيام بها !!

إنه لم يذهب إلى مصر من قبل ، لكن يبدو أنه سيذهب قريبًا .. وبعد أن يتم مهمته سيكون عليه أن ينتحر !!

(*) هل تذكرون (إليزابيث) ؟!

شعور غامض يكتنفه ، يقول هذا .. نعم . سيتم مهمته هذه ثم سينتحر !

سيكون مضطراً ..

تمت بحمد الله

د . تامر إبراهيم

■■ ملاحظة أخيرة :

قصة السبعة مقتبسة من إحدى الوقائع التى ذكرها الكاتب الكبير (أنيس منصور) فى كتابه « أرواح وأشباح » ..